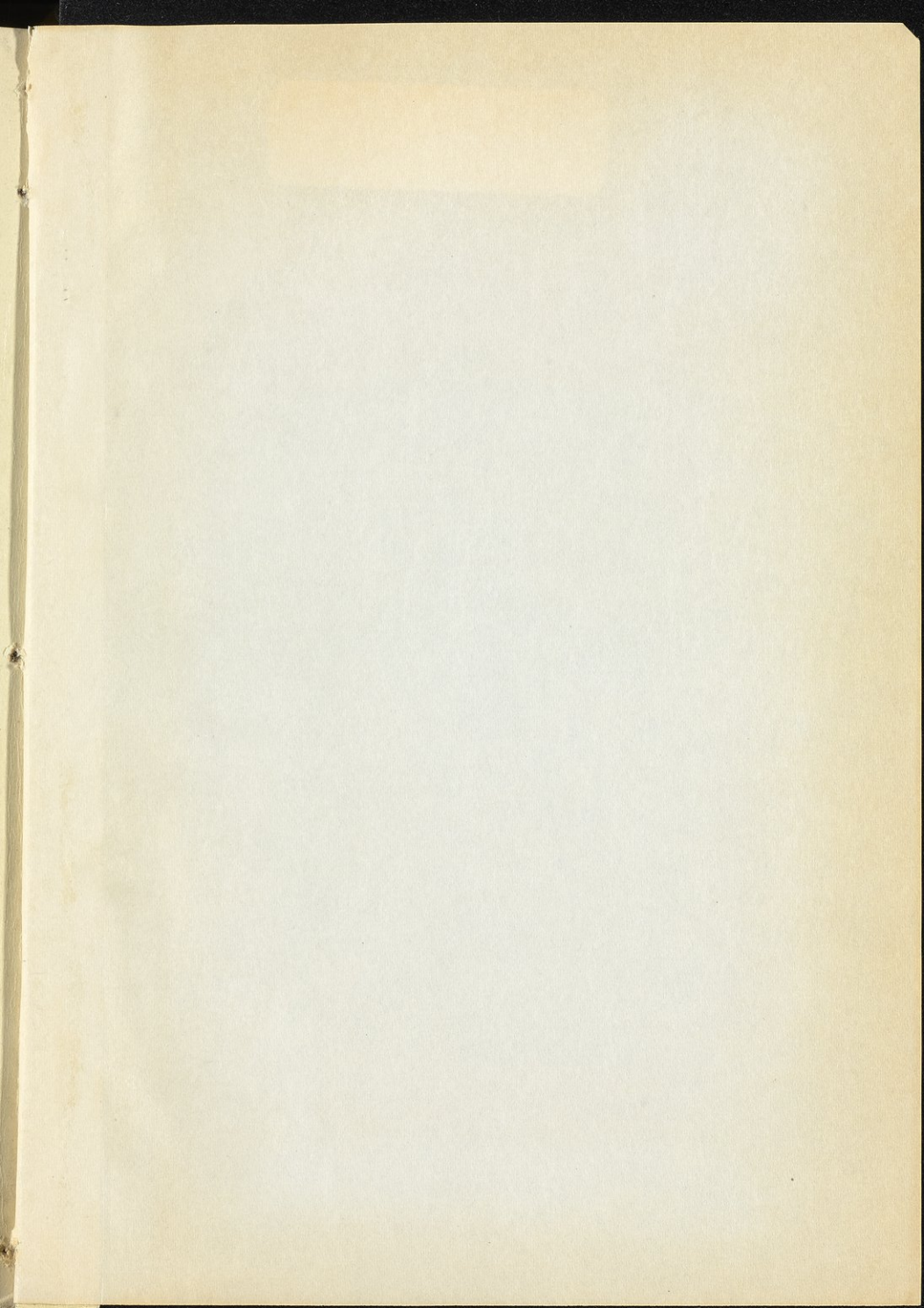


Princeton University Library



32101 073584599

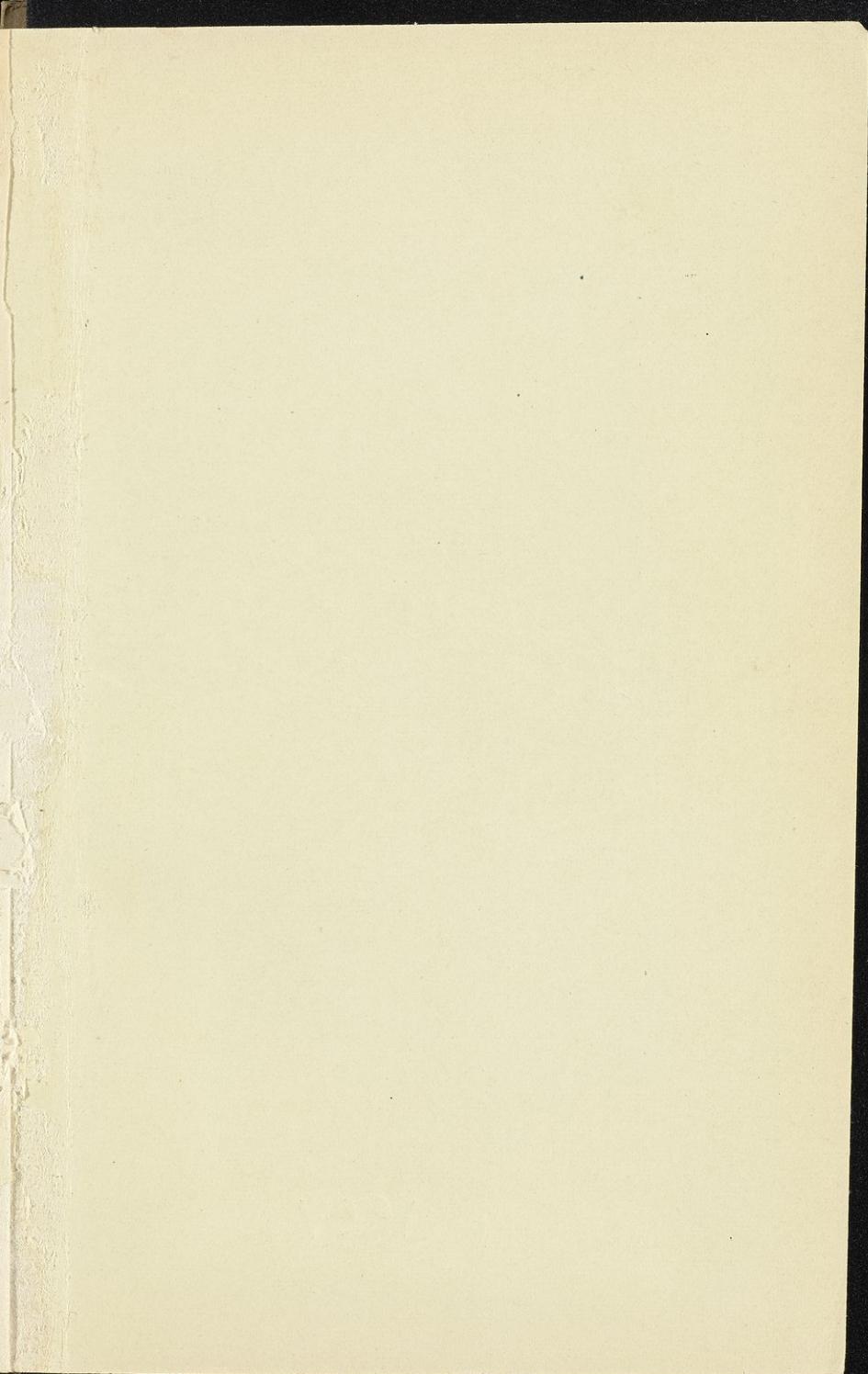


Prime

مكتبة المصطفى

مِنَ الْأَدْبِ الْمَعَاصِرِ
كامل

١٩٥٧



al-Kayyālī, Sāmī

دار الكتب العلمية

Min al-adab al-mu'āṣir

مِنَ الْأَدَبِ الْمُعَاصِرِ

١٩٥٧

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف



الزهراء

الى تلك الروح الهائمة في عالم الحق والخلود
الى تلك الزهرة العبقرة التي داستها اقدم الزمن العاتية
الى الجذوة التي اشعلت في قلوب ذويه ومحبيه حرقه لن
تخمد والتي سيظل وهجها مشتعلا كلما تجددت ذكراه
الى الذي كانت له يد في جمع فصول هذا الكتاب فشاء
القدر ان يطوي صاحب اليد قبل ان ينشر الكتاب.
الى ولدي الحبيب « مختار »
اهدي هذه الصفحات الذابرة .

سامي

2258

515

3

للمؤلف :

نظرات في النقد والتاريخ والادب

شهر في اوروبا

سيف الدولة وعصر الحمدانيين

الفكر العربي بين ماضيه وحاضره

الراحلون

ابو العلاء : دفاع ابن العديم عنه

من اضواء الماضي - مباحث تاريخية - « سلسلة اقرأ » -

انواء واطواء - مجموعة قصصية -

المرأة : هذا اللغز الابدئي

مع طه حسين - « سلسلة اقرأ »

بنت يزيد - قصة معربة -

الحكيم شهاب الدين السهروردي « سلسلة نوابع الفكر العربي »

رسالة الاديب

بين مصطرح الالهواء والاعاصير



كثر الكلام في عصرنا هذا عن الأدب والأدباء،
وعن رسالة الاديب ، والدور الذي يلعبه على
مسرح الحياة ، فهو، في عرف البعض، ذو رسالة انسانية
سامية الاهداف ما جاء هذا الكون الا ليؤدي هذه
الرسالة بتجردٍ واخلاص - كالزعيم المغامر الذي يقود

امته الى حياة حرة طليقة رغيدة ، او كالنبي المرسل
الذي يحمل تعاليمه المقدسة الى بني قومه والى البشرية
أجمع ، ويتساءل الكثيرون ما حدود هذه الرسالة وهل
يمكن ان تحد بنطاق ؟.. انها، في اعتقادي ، فيض من
الالهام ينبعث من الاعماق ليرسم للبشرية المتصدعة ،
المضطربة ، الهاجئة ، القلقة ، المتعبة طريقها الى الحق
والحرية والخير والجمال ..

هذه هي رسالة الاديب في مدلولها العام ..
والواقع ، انه ما من شيء يشغل الاديب - هذا
الانسان اليقظ ، الدقيق الاحساس ، المتحرر من كل
القيود التي تعيق تفكيره الحر عن الخلق والابداع - نعم ؛
ما من شيء يقلقه ويشيره الا الانحراف عن المبادئ

العليا .. وهو لهذا يعمل ما استطاع على تسامي الانسان
تسامياً يشعره بذاتيه وانسانيته ، وانه حر مفكر لا
يساق في ميوله واتجاهاته كما تساق الانعام ، كل همه
- هم الاديب - ان يعمل على فك هذه القيود التي تحد
من حرية الفكر وتطور الجماعة ، وهو إذ يبذر بذور
الرحمة والاخاء والحب في قلب المجتمع ، واذ يرسم هذه
الظلال الوارفة من العدالة الاجتماعية التي ظلت احقابا
طويلة حلم الفلاسفة والمفكرين ، يريد مخلصاً ان يري
الكون مغموراً بفيض من السعادة والطمأنينة ، لا يتجاوب
في آفاقه غير حلاوة الانعام وجمال الاناشيد ..

هذه خطوط رئيسية من رسالة الاديب .

ولتحقيق هذه الرسالة ، يكتب كل يوم ، هو اجسه

وامنياته، يكتب في كل ظاهرة من ظواهر الحياة .. في
السياسة والاجتماع والاخلاق، يكتب قصصا وشعراً
وادبا خالصاً - هدفه الأول حرية الفرد، وهناء الجماعة
وسعادة البشرية .. وهو، الى رسالته التهديبية، يبدع كل
يوم، كل ما يزين الوجود بروائع الفن وروائع الادب
الرفيع، وستظل الآيات التي ابدعتها روحه اليقظة،
الشاعرة، الملهمة، زاد الانسانية في موكبها الازلي
الطويل . فمن عهد الاغارقة، وقبل الاغارقة بآلاف
السين الى يومنا هذا، و«رسالة الاديب» تقوم على هذه
التأملات التي تصور الشقاء، الانساني، والوسائل التي
تحقق ويلات هذا الشقاء والطرق الناجعة التي ترينا الكون
انشودةً علويةً يترقق على اضواءها الحاملة بريق السعادة وهناءة

الانسانية هدف الادباء كلهم الى هذا، واذ كتبوا تأملاتهم،
وهي تهدف كما قلنا، الى تقويم الطبع البشري - رسموا
هذه الحدود التي تفصل بين الحق والباطل، بين الخير
والشر، بين السعادة والشقاء، بين الحرية والعبودية،
بين الانسان المثالي المتفوق وانسان المغاور والكهوف،
وجميعهم، وان اختلفوا في الصورة، فقد اتفقوا في المنهج،
أرادوا ان تنتكب البشرية من الق الهوى والضلال،
وان ترتفع صُعداً الى ذروة الكمال، ثم تصوّروا
فردوساً جميلاً يخلقونه على طراز «الفردوس الازلي» الذي
صوّره الكتب السماوية .. وُخيل اليهم ان رسالتهم قد
انتهت حين بدأت «رسالة العلماء» اي حين بدأت المخترعات
تنقل البشرية في القرن التاسع عشر، من طور الى

طور ، من طور غيبي الى طور واقعي، من الخيال الى الحقيقة، ولقد انحسر وجه الدنيا في مطلع القرن العشرين عن اعاجيب اغرب من الخيال. والواقع، ان ما أبدعه رجل العلم من مستنبطات ومخترعات يفوق في أثره ما خطه الاديب من رموز واشارات .. ولكن إلام انتهت اليه البشرية بهذه المخترعات؟ انتهت الى ما واجهه العالم في هاتين الحربين العالميتين المبيدتين من دمار مريع! وذهبت - وأسفاه - امنيات الكتاب والفلاسفة مع الريح وإن بقي اثر كلامهم الحلو العذب صدى لما هاجت به نفوسهم الشائرة واحلامهم الحلوة العذبة ، وظل الانسان بالرغم مما زودته به رسالة العلم ، هو هو مؤهلاً في امعه وانايته ووحشيته وجنونه، كما ظلت

البشرية في اضطرابها وقلقها متعبةً ، هائجة ، نائرةً تعيش في الآلام المضيئة والشقاوة الباكية ، ومع كل ذلك فلا تزال تنو الي تلك اليد السحرية التي تقضي على غمرة آلامها وشقاوتها. نعم ، انها تتربّخ الخلاص مما تعانيه من شقاء وآلام فهل تكون نهاية هذه الآلام ، وقد خاب ظنها بشمرة الحرب العالمية الاولي التي لم تحقق لها سعادتها كما لم تحقق لها الحرب الثانية عالمها الافضل الذي وعدت به - هل تكون نهاية آلامها بهذا الاشعاع الذي انبتق من عالم الذرة ؟

لقد ذاقت « هوريشيا » - الجزيرة اليابانية

الكبرى - نار هذا الاشعاع فهل ينعم العالم ، بعد هذه

الكارثة التي كانت الحد الفاصل بين الحرب والسلام -
هل ينعم العالم بنور هذا الاشعاع وفيضه وما في اطرافه
من سعادة وخير ؟

يقول انشتاين في حديث له عن القنبلة الذرية : « انه
بالرغم من ان حرباً ذرية ستؤدي الى قتل ثلثي سكان
المعمورة ، فسيبقى في العالم من الرجال والكتب ما يكفي
لاستمرار المدينة » !!

وقل لي بربك ، أية مدينة هذه التي يتحدث عنها
انشتاين صاحب نظرية النسبية ؟ كأني به يقول : ان
هو اجس الفلاسفة وامنيات الكتاب - ومن قبلهم الرسل
والانبياء - ان تعاليمهم وصرخاتهم في اصلاح جبلة
الانسان وفي بسط جناحي الطمأنينة والسلام، وفي خلق

فردوس جميل ينعم به العالم - ان كل هذه الجهود قد
 ذهبت بديداً ... أقول ان رسالة الاديب التي تجاوب
 صداها العميق مع الاجيال قد فشلت واصبح مصير العالم
 بيد الساسة والعلماء؟ لا اعلم ..

ولكن الحقيقة الراهنة انه قد بدأت اليوم رسالة
 جديدة في التوجيه العالمي - هي رسالة العلم ، والعلماء
 ووطنيتهم من طينة الادياء - هم الذين يستطيعون ان
 ينقذوا العالم مما يتخبط به من كرب وشقاء . وهم الذين
 يستطيعون ان يرسموا للعالم الجديد نهجه السوي . هم
 وخدم مناط الامل في مستقبل يطمئن فيه العالم الى
 قيم جديدة تحل محل القيم القديمة في كل شؤون الحياة
 العامة والخاصة . لقد أدّى الاديب رسالته باطمئنان - ولم

يكن في يومٍ ما أداة شر . وهو يرجو ان لا يصبح زميله
 أداة شر . والعالم يتجه اليوم الى العلماء « فهم وخدم بما
 أوتوا من سعة الافق في التفكير - ومن النظر في الامور
 بعين سامية بما فوق اعتبارات الحاضر ومنافعه ، هم القديرون
 على ان يرسموا للعالم طريقه ، فهم اقل تأثراً بالحدود القومية
 وبالاهواء الوقتية ، وهم قديرون بذلك على التماس القيم
 التي تصلح للحياة الانسانية في الطور الحاضر » .

ويخال الي ، ان الصراع بين السياسة والعلم سيكون

قوباني هذه الفترة من حياة البشرية ..

فهل يتحرر العلم من سيطرة السياسة ؟ وهل يتاح

للعلماء ان يعملوا في جو حر طليق - في هذه الافاق

العلوية التي تسمو على اعتبارات المادة ؟ وبالتالي هل

سيكونون في معزل عن الاعيب السياسة وشعوذاتها
 ام ان علمهم سيستخدم للاغراض الدنية - اغراض
 الرأسمالية الجشعة واغراض الطغاة من السياسة والقادة
 الذين لا يرون جمال الحياة الا في الهدم ، وفي ان يعيش
 العالم على بركان من اللهب ! ...

لقد خدعت السياسة الأدب مرات ، وخدعت العلم
 مرة واكثر من مرة فهل تكرر هذه الخداع والالاعيب؟

واذا كان ليس هناك اي خداع فقل لي بربك اين هو
 « العالم الافضل » الذي وعدت به البشرية ؟
 والحربة التي وعدت بها الشعوب ؟

والديموقراطية الحقبة التي جارب العالم في سبيلها
 ستوات ست ؟

والانسانية الوادعة الحاملة هل يقدر لها ان تعيش في
ظلال وارفة من الدعة والطمأنينة والسلام؟..

والامم هل تقوم علاقاتها على اسس من الاخاء
والتسامح؟..

والضعفاء هل في وسعهم ان يطمئنوا على انفسهم
من بطش الاقوياء؟..

لقد عقد منذ انتهاء الحرب الثانية الى اليوم اكثر
من مؤتمر واحد، لاقرار مبادئ السلام وحماية الاجيال
المقبلة من كارثة الحروب التي اجتاحت الانسانية بالأم
وويلات لا توصف . وقد اقر المؤتمر هذه المبادئ
التي ترمي الى صون حقوق الامم كبيرها وصغيرها .
وايجاد الشروط اللازمة لصيانة العدل وحرمة الالتزامات

الناشئة عن المعاهدات التي تبرم . كما تعاقدوا على تنمية
 علاقات الصداقة بين الامم على اساس احترام « مبدأ
 التساوي في حقوق الشعوب » و « حقهم في تقرير المصير »
 وبالتالي « إشـاعـة الحريات الاساسية للبشر اجمع
 من غير تمييز في العرق او اللغة او الدين » فهل في وسع الامم ،
 والامم الصغيرة منها بصورة خاصة ، ان تظمن الى هذه
 المبادئ النبيلة ؟ . وهل لحماسة السلام ، بعد اليوم ان
 تحلق في الاجواء حرة طليقة ؟

ان المفكرين لا يزالون يشعرون في قرارة نفوسهم
 ان « انانية المستعمرين » هي التي تسيطر ، و « اطماع الدول
 الجشعة » هي التي تحكم ، و « القوى الغاشمة » هي التي
 تريد ان يكون لها الكلمة العليا في حكم البشر ، اما

المبادئ الانسانية النبيلة التي يلوح بها السياسيون فهمي
 لون من الاحلام الكاذبة واسطورة مجنحة من الاماني
 العذاب ، فعقلية الساسة الذين يحكمون العالم . وهي عقلية
 عتيقة لم تعد تلائم هذا العصر كما يقول برناردشو ، هي
 التي تفرض ارادتها وجبروتها وكأني بالمفكرين
 المؤمنين بالمبادئ السامية النبيلة يصرخون من الاعماق :
 ما قيمة ابداع الفنان ، ورسالة الاديب ، وجهد العالم ،
 وصبر المخترع ، اذا كان كل ذلك سيصبح بيد الاهواء
 الطاغية العمياء - كأني بهذه الطبقة المصطفاة تقول
 للانسان - وقد خالجه اليأس : لا تصدق بعد الان ما
 يقوله السياسيون ، فأقولهم اناشيد من الشعوذة يراد بها
 دائماً سوق الشعوب الى مصير قائم مظلم . . .

وتساءل الان ما شأن الاديب في هذا المصطرع
 الجشع وما هي رسالته ؟ نعم ، ما هي رسالته في هذا
 المصطرع الجشع الذي يموج بالاهواء السياسية واعاصيرها
 الهوج ؟ في اعتقادي ، ان رسالته يجب ان تبعث من
 جديد بما يوآم نزعات هذا العصر ، اي ان يترك « برجه
 العاجي » ليواجه الحياة ويشير النفوس من جديد لعبادة
 الحق والخير والحرية والجمال .

رسالتك ، ايها الاديب ، القضاء على روح
 الاثرة والانانية والبطش والطغيان . اذ ليس على
 الاديب - وقد كان طوال العصور ذا رسالة انسانية
 سامية - ان ييأس من الصدمات .. ان رسالته لم تنته
 بعد ، وعليه ان يعمل مع رجل العلم في اداء هذه الرسالة

اي عليهما ان ينزعا السلطة من « الساسة المشعوذين »
الذين لا تروق لهم الحياة الا في الصراع الدامي الذي
يستنزف حياة الشعوب - على العلماء والادباء ان يكونوا
جهة قوية لنزع السلطة من القادة والساسة قبل ان
تواجه البشرية حربا ثالثة لن تبقي ولن تذر . عليهم ان
ينادوا بعقد مؤتمر عالمي لا يشترك فيه الا الصفوة المختارة
من رجالات العلم والادب ، يرسمون فيه للبشرية الجديدة
انجيلا جديدا ، لمستقبل البشرية اليوم بيد العلماء الذين
يستطيعون ان يقضوا على الحضارة في ساعات اذا ظل
مصيرهم بيد - الثعالب البشرية - واريد بهم « الساسة »
و « دهاقنة الاستعمار » الذين لا حياة لهم الا في إثارة
القتال والحروب . نعم ، العلماء وحدهم الذين يستطيعون

ان يخلقوا «العالم الأفضل» الذي تفيض من حواسيه
السعادة... فقد آن للبشرية ان تركز الى الراحة والهدوء ،
الى حياة الظلال والاناشيد ، وان تلتبس هذه «الجمهورية
الفاضلة» التي نادى بها افلاطون ، وتلك «المدينة الفاضلة»
التي بشر بها الفارابي ، فقد كفاهما ما لاقته
من شرور وآثام بعد ان غسلت ادرانها أو كادت في
هاتين الحربين الميديتين بهذا الطوفان الدامي الذي تمناه
لها شيخنا المعري قبل الف عام !

الارض للطوفان مشتاقة اعلمهم من درن تغسل



الزعات القومية

في أدبنا المعاصر



... حين اذكر الادب العربي في معرض بحثٍ
من البحوث الادبية اريد من ذكره الشمول الذي يضم
تحت لوائه الادب المصري والادب الشامي والادب
العراقي والادب الحجازي والادب الاندلسي وكل بقعة
عربية ينتج ادباؤها وشعراؤها ادباً يعبر عن شتى منازع
الحياة .

والنزعات القومية في ادبنا المعاصر بدأت قوية في شعر الشعراء وادب الكتاب منذ بداية القرن التاسع عشر وقبيل هذه الفترة بسنوات .

فقد اعتبر الادباء والشعراء والمفكرون - اعتبروا ادبهم وسيلة للنهوض بأوطانهم وبالأمة العربية التي ظلت اجيالاً طويلة تحت سجع الغيوبة والجهالات ، محكومة لغيرها ، لا تتمتع بما تتمتع به الامم الحرة او بما كانت تتمتع به الامة العربية يوم كانت ذات صولة وسيادة وساطان .

ولقد انبثقت الصيحات من هنا وهناك تقاوم نزعات الطغيان وتدعو الى التحرر من نير الاجنبي ، وتهيب بالشعوب العربية ان تعمل عمل اسلافها في

سبيل العزة والكرامة، وفي سبيل سيادتها وحريتها السليبية.
ففي مصر، كما في سوريا والعراق كانت الدعوة الى
اليقظة والتحرر هي سبيل الشعراء والكتاب والمفكرين.

ولا نرجع بعيداً الى الورااء فحسبنا ان نلمع الى هذا
الماضي القريب الذي عشنا في ظلاله .. فصيحات
الافغانى ومحمد عبده وسعد زغلول واحمد لطفى السيد
وقاسم امين وشوقي وحافظ في مصر - ان صيحاتهم كانت
دعوات صارخة لتحرير مصر والشرق من العبوديات -
عبودية الجهل وعبودية الاحتلال .. اي كان انتاجهم
الفكري يقوم على « البعث القومى » ، وكان صورة من
هذه النزعات التي تثير ادق ظاهرة تمس شعور الامة
ووجدانها القومى .

وفي الشام كانت صيحات الدلال واليازجي
 واديب اسحق والكواكبي وشكيب ارسلان و خليل مطران
 صيحات قومية ، كان ادبهم وشعرهم يتناول « النزعات
 القومية » اكثر من أي شيء آخر . .

وقل مثل هذا عن الزهاوي والرصافي والكاظمي
 في العراق . . واندادهم من كبار الابداء والشعراء في
 مختلف البلاد العربية - ان ادبهم لم يكن في تلك الفترات
 وسيلة من وسائل التلبية بل كان اداة لهزّ وجدان الامة
 وضميرها الغفيان .

ولاضير علينا ان نجول جولة قصيرة ، من قبيل
 الاستطراد ، في ادب اولئك الهداة المصلحين الذين
 افزعهم ما كانت عليه الامة العربية من خمول وغفوة

فراحوا يهيمون بها ان تصحو وان تنهض بأفانين مختلفة
من القول - من رائع النثر وجيد الشعر ..

فجمال الدين الافغاني ، الى انه مصلح ديني ، كان في
مقالاته وخطبه ، ثائراً قومياً يريد للشعوب الشرقية ان
تتحرر من الجبهالات ، وان تستعيد عزتها وكرامتها
ومكانتها السامقة بين الامم الكبيرة الحرة ، اي كانت
صيحانه ، ولا سيما في الفترة التي شهد فيها التدخل
الاجنبي في عهد اسماعيل - كانت صيحانه ذات طابع
قومي ، وكانت كلماته كالسوط في جسم الشعب ،
فمن كلماته التي دعا فيها المصريين الى التحرر والثورة قوله:

« انكم معاشر المصريين قد نشأتم في الاستعباد ،
وربتم في حجر الاستبداد ، وتوالت عليكم قرون منذ

زمن الملوك الرعاة الى اليوم وانتم تحملون عبء نير
 الماتحين ، وتثنون من وطأة الغزاة الظالمين ، تسومكم
 حكوماتكم الحيف والجور ، وتنزل بكم الخسف والذل ،
 وانتم صابرون بل راضون ، وتستنزف قوام حياتكم بما
 يتحلب من عرق جباهكم - بالعصا والمقرعة والسوط
 وانتم صامتون ، فلو كان في عروقكم دم فيه كريات
 حيوية ، وفي رءوسكم اعصاب تتأثر فتثير النخوة والحمية
 لما رضيتم بهذا الذل وهذه المسكنة ، تناوبتكم ايدي الرعاة
 ثم اليونان والرومان والفرس ، ثم العرب والاكراد
 والمماليك ، وكلهم يشق جلودكم بمبضع نهمه ، وانتم
 كالصخرة الملقاة في الفلاة لا حس لها ولا صوت .
 انظروا اهرام مصر ، وهياكل منفيس ، واثار طيبة

ومشاهد سيوه ، وحصون دمياط ، فهي شاهدة بمنعة
آبائكم وعزة اجدادكم ، هبوا من غفلتكم ؛ اصحوا من
سكرتكم ، عيشوا كباقي الامم احراراً سعداء ..»

وبالرغم من قسوة هذه الكلمة وثقل وقعها على
النفوس والاسماع فقد تقبلها المصريون بقبول حسن
لصدورها عن قلب رجل محب يريد الخير لمصر والحياة
الحرّة السعيدة للمصريين ..

ومقالات محمد عبده التي كان يغمرها الحماس الديني
ايضاً كما امام من أئمة الاسلام كانت في مجموعها صيحات
قومية مثيرة ، حتى رأى بعض الباحثين الذين أرخوا لمصر
ان مقالاته كانت من العوامل التي اضرمت نار الثورة
العراية ، فمن كلماته الحكيمة في قداسة الوطن قوله :

« .. وجملة القول أن في الوطن من موجبات الحب
والحرص والغيرة ثلاثة تشبه ان تكون حدوداً .
الاول : انه السكن الذي فيه الغذاء والوفاء والاهل
والولد .

والثاني : انه مكان الحقوق والواجبات التي هي مدار
الحياة السياسية وهما حسيان ظاهران .

والثالث : انه موضع النسبة التي يعلو بها الانسان
ويعزّز ، أو يسفل ويذل وهو معنوي محض ..
فإذا تقرر ذلك مما قلناه وجب على المصري حب
الوطن من كل هذه الوجوه . »

ثم قال - وكانني به كان يرد من طرف خفي على كلمة
استاذة جمال الدين التي تقدمت هذا الكلام - :

« وقد كان بعض الناس يحاولون خلع الشعار الوطني عن ذوي الحقوق والواجبات في مصر والباسهم جميعاً لباس الجهالة والذل ، ولكن ابت الحوادث الا ان تثبت لنا « وجوداً وطنياً » و« رأياً عمومياً » ولو كره المبطلون . على ان منهم فئة لا يزالون يؤلمون اسماعنا بما يكررون من سفاسف القول من مثل انا تعودنا احتمال الظلم والحيف ، وألفنا الخدمة والرق فلن يستقل لنا رأي ولن نهتدي سبيل الحرية ، كأنما هم لا يعلمون ان اهل الغرب اجمعين تعودوا مثل ذلك الحيف أعصاراً وكانوا في قديم الايام على ضروب من الرق وانخفاض الجناح ، وان العالم بأسره كان فريقين : احراراً يُظلمون وعبداً يطيعون . او لم يكن في بلاد الفرنسيين من قبل هذا العهد صنوف

من الرقيق يشتغلون في الارض لغيرهم ويباعون كما
تباع العجاوات ، او لم يقل كاتبهم فولتير في وسط المائة
السابقة :

« لا يزال في بلادنا ستون ألفاً او سبعون ألفاً عبيداً
للرهبان . »

فما بال هذه العادة لم تمنع الفرنسيين من الوصول
الى ما أدركوه من رفعة المقام وان يروا امثال تيارس
Thiers وجريفي grevei وغمبتا gambetta في ابتداء
من كانوا من قبل عبداناً ارقاء ..

ولئن كان من فضل هذه المسألة ان يكتب في صدر
تاريخها تحرير ارقاء العصر السالف فقد رجونا وحقق
الله هذا الرجاء ان يختم ذلك التاريخ بتحرير الذين

كانوا ارقاء هذا العصر ، وحسن ذلك ابتداءً وذلك ختاماً «
ومقالات احمد لطفي السيد وخطبه كانت في مجموعها
دعوة صارخة الى تعزيز الروح القومية ، وقد يكون
من الاوائل الذين بذروا بذورها الخصبه في عقليه الجيل
الجديد . ووجهوه هذه الوجهة التي حوّلته من التعلق
بازيال « العثمانية » الى التمسك باهداب « المصرية »
الصحيحة .

وكتب قاسم امين التي تفيض بالنزعات الاجتماعية
والاتجاهات التقدمية كانت في مجموعها ايضاً ذات
اهداف قومية صريحة .

اما سعد زغلول فحسب ادبه وخطبه ان يكون
من اثرها اضرام نار الثورة المصرية في سنة ١٩١٩ والتي

لم يقف لهيها في حدود المملكة المصرية بل تعدى هذا
 اللهب الى الشرق العربي بكافة اقطاره وشتى شعوبه ،
 فكانت صيحاته الثورية القومية ذات دوي ورنين، واثر
 مكين ، في قلوب الشرقيين اجمعين .

ومن قبله الزعيم الوطني الثائر مصطفى كامل ، فقد
 كان ادبه ذا لون قومي صريح ، وكانت كل خطبه
 ومقالاته دعوة الى الثورة والتمرد ، فمن كلمة جاءت عرضاً
 في احدى خطبه النارية قوله :
 « اذكروا مصر .. »

فان في ذكرها ذكرى آلامها .
 وذكرى الآلام يجر حتماً الى ذكر عوامل الشقاء .
 اذكروها كما يذكر الولد الحنون امه الشقيق وهو

على سرير المرض والعناء ..

اذكروها بآلامها وان كان غيركم يذكر بلاده

بمجدها ورفعة شأنها ..

اذكروها فأنتم مقدرين لمصائبها ، عارفين بحقيقة

آلامها ، دام الامل وطيداً في سلامتها ودام الرجاء .

اذكروها فمن المستحيل ان يرى العاقل النار في داره

والداء في شخص امه ، ويهمل النار ويهمل الداء ، ومن

المستحيل كذلك ان يكون الوطن في خطر ونحن

نيام ، وان يعمل الاجني لامتلاك بلادنا وسلب حياتنا

بل لاستعبادنا واسترقاقنا ونحن جامدون لا عمل ولا حراك ؛

القوا ، ايها السادة ، بانظاركم الى الامم الحرة تجدوا

كل فرد فيها يدافع عن وطنه ويدود عن حوض بلاده

اكثر من دفاعه عن ابيه وامه بل هو يرضاهما ضحية
 للوطن ويرضى نفسه قبلهما قرباناً يقدمها لاعلان شأن
 بلاده .

ويعد الموت ، لأجل الوطن ، حياة دونها الحياة
 البشرية ، ووجوداً دونه كل وجود ، فلم لا يكون المصري
 على هذا الطراز ووطنه اجمل الاوطان واحقها مثل
 هذه المحبة الشريفة الطاهرة .

اسألوا التاريخ ، ايها السادة ، ما واجب امة دخل
 الانكليز دارها خدعة وعملوا لامتلاكها وسلبها كل
 سلطة وكل قوة . . . يجبكم التاريخ ان واجب امة هذا
 شأنها ان تعمل بكل ما في استطاعتها ضد مقتصبها ، وان
 تبذل في سبيل خلاص وطنها كل ما تمتلك من مال

ورجال ٠٠٠»

وشعر شوقي وحافظ والمطران ، كان الكثير من
شعرهم نفحات قومية تهيب بالشرق الى التحرر والهوض .
ومقالات الكواكبي كانت صيحات داوية في ارجاء
الشرق العربي - تلك المقالات التي اشتمل عليها فيما بعد
كتابه « طبائع الاستبداد » ، ولا نبالغ اذا قلنا انه كان
اجراً مفكر عربي دعا الى الثورة والتمرد والتحرر -
الثورة على الظلم والاستبداد ، والتمرد على الطغاة
المستبدين ، والتحرر من الجهالات والعبوديات .
واذيب اسحق المفكر الحر الذي كان متأثراً
بالاداب الاوربية - بأدب فولتير وجان جاك روسو
ومباديء الثورة الافرنسية - فقد كان من دعاة الحرية

و كانت النزعة القومية تنبثق كاللهب من ثنايا مقالاته
وخطبه ٠٠ فمن كلماته من مقال كتبه سنة ١٨٨٠ :

«لقد عرف الناس الان شرور الاستبداد، وترفعت
نفوسهم بالعلم عن الرضا به ، وصار الامر شورى عند
جميع الامم المتمدنة الا روسيا! .. وذلك ان صحت
تسمية الدولة المستبدة مطلقاً بدولة متمدنة . ان ثورة
فرانسا برزت الى عالم الفعل عام ١٧٨٩ وصدمت قوة
الاستبداد فزلزلتها ، ودفعت سطوة التقاليد فضعضعتها
ورفعت عن العيون نقابها ، وعن النفوس حجابها ،
فأنتست من جانبها نور الحرية ، وخلعت جلايب الرق
والعبودية ، فتصدى لها اعوان الرق وانصار العبودية
وما آلوا في قتالها جهداً ، فلقيتهم وهي ترى الموت في

الحريه حياة ، وفي الحياة في الرق موتاً ، فلم يبلغوا منها
 قصداً ، ورسخت في عالم الوجود قدمها ، وادهشت
 الدنيا بشدة حولها .

وابراهيم اليازجي ، وهو من علماء اللغة الافذاذ ، لم
 يكن اقل اندفاعاً في الدعوة الى الروح القومية من
 الكتاب والشعراء ، فكان اذبه ينيض بالنزعات القومية
 الصارخة ، فن قوله :

تنبهوا واستفيقوا ايها العرب

فقد طمى السيل حتى غاصت الركب

فيم التعلل بالآمال تحذعكم

وانتم بين راحات القناسك

كم تُظلمون ولستم تشتكون وكم

تُسْتَعْضِبُونَ فَلَا يَبْدُو لَكُمْ غَضَبٌ
فَشَمَرُوا وَأَمْضُوا لِلْأَمْرِ وَاتَّسَدَرُوا
مَنْ دَهَرَكُمْ فَرِصَةً ضَمَنْتَ بِهَا الْحَقْبَ

وعبد الحميد الرافعي ، الشاعر السوري الحر ، ابن
طرابلس الشام ، كانت له صحفات قومية تدعو الى
« العصبية الجنسية » فمن شعره يهيب بني قومه الى
تعزير هذه العصبية قوله :

ما تصلح الدنيا ولا ناسها
ما لم يبلِ الاقوام اجناسها

• • •

هَبُّوا بَنِي الْعَرَبِ إِامَ الْكُرَى
وَقَدْ دَهَا الْأَمَالَ دَهَا سَهَا

فكم تقيمون على ذلّةٍ
وروضة الصبر ذوى آسها
الستم نسل القروم الاولى
تنتعل الهامات افراسها
فجردوا العزم الذي طالما
شق صدوراً طال وسواسها

ومعروف الرصافي الشاعر العراقي الكبير ، فقد ظل
خمسين سنة يهيب بالامة العربية ان تفيق وان تنهض ،
ولاءً كثر شعره هذا « الطابع القومي » الحر
وارتفع صوت عبدالمحسن الكاظمي الشاعر الابي
بالشعر القومي ، وبهذه النزغات القومية الثائرة
يا أيها العرب وأدعو العرب اني وجدوا

لئن تشاؤا ان تراحوا من عناء فاجهدوا
الستموا من حرّموا حقوقهم واضطهدوا
وكلما عنّ لهم ذكر الحمى تنهدوا
اما كفاكم حافزاً ذكر الذين استشهدوا

• • •

ياقوم ان تهاونوا فحركم مستعبد
منّ نام عن اوطانه فذاك ميت يلحد
ومنّ يمّت دون حماه فهو حي يُحمد
الوطن الروح وما اهله الا الجسد
وكيف يسهو بدن عن روحه ويرقد
مجدي وما مجدي الا الوطن المجد
حبيب نفسي وطني آهله والفقيد

* * *

رب اناس عبثوا بنا ولم يتندوا
 ضلوا الهدي وُلقنوا بطلهم وُزودوا
 اذا رأوا شاكلة القوم رموا وسددوا

. . .

هيا بنا نعدّ ما تهى اليه العدد
 يفوز من عدته عزيمة لا تخمد
 وغيره جذوتها طول المدى تتقد
 ان قيل خطب انبرى أشيها والامرء
 بعض لبعض حرم بعض لبعض عضد
 وكلهم على العدى اذا العدى تمردوا
 على سوى نفوسهم في الامر لم يعتمدوا
 يا حبذا لو عاد بالبشر القريب العود

نروح في ديارنا والعيش عيش ارغد
ونفتدي اوطاننا والعز عز ، سرمد

والقصيدة طويلة ، وهي في مأتي بيت تقريباً ،
وقد كان الكاظمي يرتجل الشعر ولا تقل قصيدته
الواحدة عن المئة والمتي بيت ، وكلها تفيض بالشعور
القومي العارم .

لقد كان للقصائد التي نظمها الزهاوي والرصافي
والكاظمي والشبيبي وغيرهم من شعراء العراق - وهي
ذات نزعات قومية صارخة - كان لهذه القصائد اثرها
البليغ في إهاجة النفوس التي انتهت لا الى « الوعي
القومي » فحسب ، بل الى اضرام اكثر من ثورة على
الفاصين .

وكما كان الاتجاه القومي سبيل الكتاب في القرن التاسع عشر ، فقد ظلَّ هذا الاتجاه سبيل الكثير من الكتاب والشعراء والمفكرين حتى مطلع القرن العشرين والى يومنا هذا .. ذلك لان الأمة العربية لا تزال في نضالها العنيف مع الامم المستعمرة .. ولا بد للأديب من ان يتحسس باحاسيس قومه ، يعبر في نثره وشعره عن هذه الاحاسيس .

ولأن كانت النزعات القومية في ادبنا بالامس محدودة النطاق ، فقد اتسعت اليوم واستفاضت ، واصبحت شائعة على السنة القادة والزعماء والادباء والشعراء ، تملأ اعمدة الصحف ، وتصدر في شئونها الرسائل والكتب .. وما تلك المقالات الرئيسية التي

تكتب كل يوم في الصحف ، والخطب التي تلقى في المناسبات القومية ، الا صورة من صور « الادب القومي » الذي يؤرخ مرحلة من مراحل جهادنا الطويل ولا سيما في هذه الفترة التي يصطرع فيها الحق مع الباطل ، وتقف الأمة العربية جبهة واحدة ضد مطامع المستعمرين .

وقد كان الادب القومي عند جميع الامم ، وفي مختلف العصور ، بواعث لحفز الهمم وركائز لدعم السيادة ، وما تخلت أمة قط ، حتى الامم القوية التي تتمتع بسيادتها وجبروتها - عن دعم ادبها القومي لانه غذاء دسم للامة وأي غذاء ، بل هو بعض مقومات كيانها .. وهو ، الى قيامه بهذه المهمة الخطيرة في احياء

الشعور القومي والحفاظ عليه ، يظل صورة للتعبير عن
 خواجج الأمة واداة لرسم مشخصاتها ، بل هو حشد
 رائع من اللوحات الفنية التي تنعكس على الوانها مباحج
 الوطن بأرضه وسمائه ، بجباله وأوديته ، بأنهره وبحيراته
 بأكسواخه وقصوره ، بهوائه ومائه ، وبكل ما يربط
 الانسان بالأرض التي أنبتته والسياء التي اظلمته ..

لا اريد ان استرسل في وصف الدور الخطير الذي
 يلعبه الادب القومي في حياة الأمم ، فقد مررت بهذه
 الكلمة استطراداً في معرض كلامي عن النزعات القومية
 في ادبنا المعاصر .. والذي اريد ان اشير اليه في ختام
 هذا البحث ، ان النزعات القومية في ادبنا ، قد بدأت ،
 كما قلت ، منذ بداية القرن التاسع عشر ، ولا تزال حتى

يومنا هذا، ذلك لان الامة العربية ما تزال، كما قلت، في نضال مستمر مع الامم ذوات النزعات الاستعمارية .. وبديهي ان تكثر، نتيجة لذلك، النزعات القومية، وقد مرّت الامة العربية خلال منتصف القرن العشرين باحداث جسام، منذ كان مصيرها مرتبطاً بالامبراطورية العثمانية الى ان شبّ النزاع قوياً بين العرب والترك، الى اندلاع الثورة العربية من بطاح مكة، الى تقسيم البلاد العربية الى مناطق نفوذ افرنسية وانكليزية، الى هذه الثورات التي نشبت في مصر وفلسطين والشام والعراق ضد الغاصبين - كل هذه الاحداث القومية قد قد اثارت شعور الكتاب، وقرائح الشعراء بصورة خاصة، فراحوا يعبرون عن هذه الاحاسيس تعبيراً

صادقاً هو بمجموعه بعض صور الادب القومي ، وقد
 ظهر ذلك بارزاً قوياً في محنة فلسطين الاخيرة حتى كاد
 ادبنا العربي ، في هذه الفترة ، يصطبغ بهذا اللون الدامي
 الذي عرفه الادب العربي قبل خمسمئة سنة عندما اصاع
 العرب الأندلس - ذلك الفردوس المفقود الذي بكيناه
 بالدم الاحمر !.

نعم ، ويضيق المجال لو رحنا أرمننا الى هذه
 النزعات ، وهي كثيرة في شعر الشعراء ، وادب الادباء ،
 ومقالات الكتاب ، وبحوث المفكرين ، وحتى في كتب
 بعض المؤلفين .. وهي غذاء روجي لنضالنا القومي ، في
 هذه النهضة التي تهدف اول ما تهدف اليه - الى تحرير
 البلاد العربية سياسياً واقتصادياً واجتماعياً لتستعيد مكانها

السامقة من جهة ، وتعمل ، من جهة ثانية ، مع الامم
الحررة المخلصه لمبادئها في سبيل هناءة الشعوب التي لا تزال
ترسف في قيد الاستعمار .



رسالة المعري

والعبودية ذاتي



لرسالة الغفران ، كما للعبودية الالهية ، هذه
الشهرة الادبية التي شغلت الكثيرين من الادباء
والشعراء على مدى الاجيال . فيها اثران فذان ، يعتبرهما
النقاد والمفكرون ، في طليعة الآثار الادبية ،
ولصاحبهما هذه المكانة السامية التي لهوميروس وفرجيل

وشكسبير وغوت وشلر وغيرهم من شعراء الدنيا . وقد
تلاقى المعري وداتي ، في هذه المفازات الادبية التي
خلدت اسميهما ، حتى ليحسب القارىء ان الرسالة
والالعبوبة اثر ادبي واحد . فقد تشابهتا بالفكرة والخيال ،
وفي وصف الجنة والجحيم ، ورأينا غير واحد من كبار
الباحثين ، يعرضون الى تأثر داتي بابي العلاء ، حتى
ذهب بعضهم ، الى ان شاعر الطليان قد احتذى « رسالة
الغفران » في « العوبته الالهية » . وممن عرض الى هذه
الناحية ؛ وبجها بدقة واسهاب ، البحاثة اللغوي
المرحوم ، قسطاكي الحمصي . ففي الجزء الثالث من كتابه
« منهل الورد في علم الانتقاد » ، فصل كبير ، تبلغ
صفحاته المئة تقريبا ، تناول فيه هذه الناحية بكثير من

التوسع . وان قارىء هذا البحث ، ليلمس فيه سعة علم
الرجل ، وقوة بدهته في النقد ، ومدى شعوره القومي ،
وحرصه الشديد على صون تراثنا الفكري ، من كل
عبثٍ وانتقاص .

فقد غاص ببحثه هذا ، الى اعماق ابي العلاء ،
فصور فيلسوف المعرفة تصويراً بارعاً ، كتب نشأته
واخباره ، وتنقلاً من نوادره ، ثم عرض الى مذهبه
الفلسفي ، ونزعائه الفكرية ، وما رافق حياته من قصص ،
وما امتاز به من علمٍ واسع في شتى فنون الادب . كما
درس ، في هذا الفصل ، حياة دانتى شاعر الطليان ، ومن
تأثر به من الشعراء ، والحياة السياسية في عهده ،
واستطرد من هناك الى دراسة الحياة العقلية في اوروبا ،

وكيف كانت عالة على العلوم العربية والفلسفة الاسلامية.. كل ذلك توطئة لاقرار نظريته ، فكانت دراسته هذه من اوسع فصول الكتاب ، ومن امتع الدراسات الادبية التي سطرتها يراعتها .

ففي الصفحات الأولى من هذه الدراسة ، يعطي القارئ العربي ، صورة واضحة ، عن رسالة الغفران ، وعن خيال ابي العلاء الفذ . وهو إذ يلخص الرسالة يضع الركائز الأولى التي قامت عليها العوبة ذاتي . وكأنه ، في رسمه تصميم ابي العلاء ، اراد ان يرينا المدى القريب ، بين الاصل والفرع ، أو بين الفكرة الاصلية التي تقوم على صرح ممرد من الخيال الخصب القوي الفذ ، وبين الفكرة المنتهبة التي تعيش متقلقلة في ظلال غيرها ،

وبتعبير أدق اراد الحمصي بهذا التلخيص ان يبين الفوارق
 الذهنية بين عبقرية ابي العلاء وبين حيل دانتى ولعبه
 الفني حتى ليخرج القارىء من تلاوة بحثه ، مقتنعاً بان
 دانتى ، قد احتذى ابا العلاء في جميع صور «رسالة
 الغفران» .

اما كيف وصل دانتى الى ذلك ؟ هل كان
 يعرف العربية ، ام ان الرسالة ترجمت الى اللاتينية ؟
 قبل ان نأتي بالحجج التي اوردها العلامة الحمصي ،
 والتي جزم فيها بسرقة دانتى للرسالة ، نريد ان نلمح
 الماعاً الى مَنْ عرض الى هذه الناحية ليكون القارىء
 العربي على علم واسع بأراء الباحثين حول هذا الموضوع .
 يقول محمد كرد علي : « ولكن رسالة الغفران

التي كتبها ابو العلاء ، ردا على رسالة ابن القارح ، اشبهت رواية دانتي *La divine comédie* ، وكانت من اعظم الروايات الخيالية ، الدالة على ان اعمى المعرفة ، كان معلماً لنا بغة ايطاليا ، في الشعر والخيال .

ويقول سليمان البستاني معرب الالياذة : ان المعري ، سبق دانتي وملتن في تخيلاتهما .

ويقول جرجي زيدان : ان ابا العلاء ، سبق دانتي وملتن ببضعة قرون ، فلا بدع ، اذا قلنا ، باقتباس هذا الفكر عنه ، ودانتي لم يظهر ، الا بعد احتكاك الافرنج بالمسلمين . والظليان اسبق الافرنج الى ذلك .

ويذهب الباحثون من المستشرقين ان دانتي قد اقتبس روايته المؤلفة من ثلاث روايات ، وهي جهنم

والمطهر والجنة - ولا سيما رواية جهنم - من رسالة الغفران ، ومنهم من شبَّهها بالجنة الضائعة للملتن الشاعر الانكليزي .

فهذه بعض الآراء، التي تقول بالاقْتباس والسبق والاحتذاء والتشبيه دون ان تقول بالسرقة ، التي يورد عليها العلامة الحمصي ، اكثر من برهان واحد .

يبدأ اولى حججه ، بأن دانتي لم يكن يجهل «رسالة الغفران» ، ويجزم بأنها ترجمت مع ما ترجم من آثار اسلامية خالدة ، فيتكلم باسباب عن شيعوعة رسالة الغفران ، منذ عهد مؤلفها وتداولها بين اهل المغرب ، ولا سيما اهل الأندلس وعناية بني عباد ومن حكم بعدهم من الملوك ، بجمع الكتب ، وعن استفاضة العلم

الاسلامي في اوربا المسيحية، فيورد النصوص التاريخية، ويعتمد على موسوعات العلوم الافرنسية الكبرى فينقل عنها ادق الآراء التي أوردتها عن مدرسة قرطبة التي طبقت شهرتها الآفاق ، وتخطت بغاية السرعة ، جبال البرينه ، وكيف ان الشامسة والكرادلة قد اخذوا ينهلون من معينها ، ولم يتخرج البابا اكليمنضوس الخامس ، من ان يصدر امره ، بتدريس العربية في مدارس باريس واكسفورد وبولونيا وسلامنك ، وما كان من وراء ذلك ، من ترجمة الكثير من الكتب العربية ، وهنا يقف بعد هذه التوطئة ليقول : « فاذا عامت ذلك كله لن يبقى في نفسك سبيل الى الشك في ترجمة رسالة الغفران ، في جملة الكتب الى اللاتينية (١) .

(١) منهل الورداد ج ٣ ص ١٨٤

على انه لا يكتفي بهذا الاستطراد ، بل يوازن
في الكثير من وقائع الرسالة والالعوبة ، وفي احتذاء
دائي اسلوب المعري ، فيحكم عليه بالسرقه ، وبتخلفه
عن المعري في السمو والبيان . وهذا الحكم الذي يفرضه
علامتنا المحصي ، مستمد من تمكنه الشديد من العربية ،
تمكنه من الايطالية والفرنسية ، فقد قرأ نصوص
الالعوبة بلغتها الاصلية وقرأها مترجمة الى الفرنسية ،
وقد وازن بينها وبين الرسالة ، وهو أديب وشاعر وناقد ،
وهو يعرف مدى الخيال وأثره في ادب الاديب وكيف
يخلق الشاعر ، وكيف يسف ، وهذا الذي جعل
لآرائه قيمتها في هذا الموضوع ، وقد انتهى الى ان
دائي قد وقع على ابي العلاء ولم يكتف بذلك بل جزم

بانه قصد مدرسة قرطبة ودرس العربية فيها (١). واظنه قد تفرد بهذا الرأي، ولعله قد اورده ليؤكد نظريته التي تقوم على ان دانتى لم يكتب بالاقتباس بل سرق خيال الرسالة وبعض فصولها سرقة معيبة .

على انه ككل الباحثين، الذين يحرصون على سمعهم الادبية، لا يلبث ان يرجع عن هذه الدعوى فيقول :

«وهب انه لم يدرس العربية - وهو مالنا عليه غير ما تقدم من الادلة على سرقة رسالة الغفران - اما اوضحنا، كيف كانت تترجم كتب العلوم وآدابها من العربية الى اللاتينية، بشهادة مؤرخي تلك القرون .

(١) منهل الورد ج ٣ ص ١٩١

فهل يعقل ان داتي لم يقف على كثير من الكتب ، ومن
جملتها هذه الرسالة الشعرية المعاني ، وهو أشعر شعراء
الطليان (١) .

ونظنه بهذا الاستطراد ، ينصف داتي ويسير
مع كبار المستشرقين الذين افترضوا هذا الاقتراض ايضا .
ثم يعود فيدخل صميم الموضوع ، ويرينا كيف اتهم
داتي تصميم الرسالة وحوادثها وآراءها ، فبعد ان تكلم
عن اسطورة الصعود والهبوط في العصر المسيحية
الأولى وينقض الآراء التي تقول بان داتي قد احتذى
هذه الفكرة الميسورة لكل انسان محاكاتها لسهولتها ،
مما لا حاجة له بها ، حاول ان يلتمس طرفة فكرية فذة ،

(١) منهل الورد ج ٣ ص ١٩٢

ليزَّ كبار الشعراء المعاصرين، فأين يلتبس هذه الفكرة؟
لقد التمسها عند ابي العلاء . نعم ، عند شاعر العرب
وفيلسوفها الكبير لا عند هوميروس اشعر شعراء
اليونان ولا عند فرجيل اشعر شعراء الرومان اللذين
طرقا اغراضا مختلفة في جميع ميادين الشعر والخيال سوى
هذا الميدان الخصب الذي طرقه شاعر العرب وفيلسوفها
القد وهنا يقول قسطاكي حمصي : «لم يسبق لاحد ممن
عرجوا - في زعمهم - على جهنم او على السماء ، ان رأى
احداً من اصحابه او اعاديه او انه خاطبهم وعاتبهم
وعاتبوه الا ما صوره لنا المعري في تمنياته لابن القارح
ثم مشى على آثاره دانتى في العوبته . فاحتذى عين مثاله
ونسج على منواله وانت تعلم ان ابا العلاء طاف بابن القارح

على الفردوس اولا ثم على جنة العفاريث ثم المطهر ،
ثم جهنم كما مر بك . ثم ان ابن القارح وقف في باب
الجنة ، يستأذن رضوان في الدخول ، فطلب منه جوازاً ،
ولما لم يكن بيده جواز ، رشاه بقصيدة لم تفعل شيئاً
في نفس رضوان . ثم وقف عند السراط ، واستشفع
بالزهراء فأصرت احدى جواريتها باجازته . اما ذاتي
فقد صب هذه الحكاية في القلب الآتي :

قال في اغنيته الأولى من جهنم : انه سأل فرجيل
كيف كان حضوره اليه في الغابه المهلكة ، وفي ذلك
المقام المخيف . فأجابه فرجيل ، ان بياتريس قد استدعته
من مقره ، واستحلفته ان يذهب وينجد محبوبها
ويسعف ملتسمه ، وان شفقتها على محبوبها هي عذرها

في التماسها منه وانها وعدته بالثناء عليه ، عند عودتها
الى سيدها - ربها - (الاغنية الثانية من جهنم)

وفي الاغنية الثالثة يقول : ولما وصلنا - هو
وفرجيل - الى ساحل ذلك البحر الجهنمي ، ظهر لنا
شيخ معمم - عمه الشيب - على سفينة وصاح بنا الويل
لكن آيتها الانفس الشريرة ، لا تترجين البتة في
الرجوع الى رؤية السماء ، ها انا آت لاحملكن الى الشط
الآخر ، في منطقة الظلمات ، والى وسط النيران
المضطربة والجليد الأبدى ، وانت ايها الانسان المحي
من هم الذين اتوا بك الى هنا ؟ ابعدهن الاموات الخ ..
حينئذ قال له قائدي - اي فرجيل - يا كارون لا تدافع ،
هكذا يريدون هناك حيث يقدرين على كل ما يريدون

فلا تسئل شيئاً فوق هذا .

يقول الحمصي: اما هي قصة ابن القارح من رضوان
والزهراء وجاريتها بعينها هذه؟ هذه حكاها ابو العلاء
عنه في الفردوس ودانتي يرويها بلسان فرجيل ، عما
جرى لهما في جهنم ، والأسماء مختلفة فقط . وكما اجتمع
ابن القارح في الفردوس ، مع جماعة من الشعراء
الزنادقة ، فإن دانتي يجتمع في جهنم مع اعظم الشعراء
الوثنيين ، وهم هوميروس وهوراس واوفيد ولو كان
او (لوكانس) . (١)

وفي الاغنية العاشرة ، وما بعدها من اغاني
الفردوس ، تسأله بياتريس - او روح اخرى - وتلك
الأرواح تظهر له دائماً ، بصور نساء حسان نورانيات -

(١) منهل الوارد ج ٣ ص ٢٠٩

تريد ان تعلم ماهي الازهار ، التي تزين هذه الهالة ،
 التي تراها حول الامرأة النورانية - بياتريس - ! ثم
 تبدأ فتسمي له علماء ورهبانا وقديسين وشهداء باسمائهم
 وتقول له ان هذا استحق الفردوس بكتابه كذا، وذاك
 برسالته كذا.. والآخر بمؤلفات التأمّلات كذا،
 كتوما الاكوييني واوغسطينوس وكرايبانس
 ودومنيكوس وغيرهم كثيرين... وهو عين ما ذكر في
 رسالة الغفران باختلاف الاسماء عن شعراء الجاهلية وفيما
 يأتي بعدها من الاعاني الفردوسية ، يذكر شجرة تحيا
 بمائها وتثمر دائماً ولا يسقط ورقها اما اثمارها فارواح
 سعيدة كان لها شهرة على الأرض قبل ان ترتفع الى
 السماء والحقيقة هي شجرة ابن القارح . تنفض من الجوز

عددا لا يحصيه الا الله، تشق كل جوزة عن اربع جوان
يرقصن على ابيات الخليل .

ويزعم انه يخاطب النسر في الفردوس والنسر
يجاوبه كما هو الشأن مع ابن القارح في مخاطبة الاسد
وركوبه بعض دواب الجنة الى كثير من امثاله (١).

ويمضي الحمصي في ايراد الصورة تلو الصورة ،
وكلها صور متشابهة تؤكد الرأي الذي طرحه ، الى
ان يقول: فاذا نظر الناقد البصير بعين لا تطرفها اذيال
العصية ، وروح تجردت من دون الشعوبية قضى معنا
ان الالعوبة الالهية هي بنت رسالة الغفران لا يسترها
ما القاه دانتى عليها من جلايب الظلمات وكان الأجدر

(١) منهل الورد ج ٣ ص ٢١٣

به ان يسمي ابا العلاء قائدَه ومرشده لا فيرجيل وهو لا يدلُه في هذه الحكاية (١).

وبعد ان كشف سرقات دانتى ، مضى بنقد الالعوبة نقد باحث خبير ، وكما عاب على المعري حشو رسالته بلفظ كثير ، من غريب اللغة وعويصها فقد اخذ على دانتى هذا الاضطراب في حبك القصة ، التي تباعدت مناحيها عن الموضوع الذي قصد له المؤلف حتى بات كل واحد من هذه الاغراض ، غريبا في مكانه ، بعيدا عن بيئته ، وحتى باتت الالعوبة الالهية ، جديرة بان تسمى كناشة حكايات بيتية واخبارا بلدية ، او مجموعة شتى من الحوادث ، او كشكولا حوى معجما

(١) منهل الورد ج ٣ ص ٢١٤

صغيرا ، من الأسماء المشهورة والمجهولة (١) .

اي ان علامتنا الحمصي ، جردها من طابعها
الفني ، الذي تميز به الآثار الادبية الخالدة .

* * *

ويتلاقى الحمصي بهذه النتائج ، مع غير واحد
من كبار المستشرقين ، الذين عرضوا لهذا الموضوع ،
ويتفق معهم ، في ان الالعوبة الالهية ، ليست من
ابتكار داني ، فقد كتب المستشرق الاسباني ، ارسين
بالاسيوس ، رسالة طويلة هز بها جميع الأسس التي
قامت عليها دعائم الالعوبة ، ورد اصولها لا الى رسالة
الغفران كما فعل الحمصي ، بل الى نصوص واساطير

(١) منهل الوارد ج ٣ ص ٣١٥ .

اسلامية ، ويبدو في نظرياته ، اكثر حجة واقوى
برهاناً ، من علامتنا الحمصي . ففي رسالته «علم المغيبات -
وصف العالم الأخرى عند المسلمين و اثره في الكوميديا
الالهية» ، يقيم عشرات الأدلة والنصوص الصريحة
على ان محمدا لهم دانتى - واوحى اليه ، وان فرجيل
ودانتى ، احتذا ابن عربي و ابا العلاء .

ويظهر ان المستشرق الاسباني ، اهتم لهذا
الموضوع اكثر من غيره ، فقد شغلت علامتنا الحمصي
النواحي الادبية ، بينا غاص المستشرق الاسباني ، الى
علم المعيبات عند المسلمين ، فتبين له اثناء دراسته ،
نظريات الفيلسوف الاسلامي ابن مسرة - الافلاطونية
المحدثة والصوفية - ان هذه النظريات ، قد تسربت

الى فلسفة القرون الوسطى المسيحية وانها لم تقبل من
اساطين المذهب الفرنسيسكاني فحسب ، بل من نفس
دانتى ، الذي يزعم المؤرخون ، انه توماوي
واريستطاليسي .

يقول الكاتب الافرنسي اندره بلستور : ان
المستشرق الاسباني ، بينا كان يترسم آثار تلك النظريات
في تأليف فيلسوف آخر ، هو ابن عربي ، اذ به يعثر ،
على وصف لمعراج رمزي ، فيه شبه عجيب لمعراج
دانتى وبياتريس الى منازل الجنان ، فلما نظر في هذا
الرمز عن كتب بداله انه اقتباس للمعراج المشهور ،
الذي وصل فيه محمد الى عرش الله ، والذي تقدمه
اسراؤه الى مناطق الجحيم ، وعارض الاسطورة الاسلامية

بالقصيد الدائتي ، فتيقن ان بناء الكوميديا الالهية ،
يكاد يكون كله من صنع مهندس مسلم (١).

واكد هذا الرأي بقوله : ان في الكوميديا
الالهية عناصر اخرى لا توجد الا في الاساطير العربية ،
بمعنى انه لا يمكن التسليم ، بان دائتي كان جاهلا من
اين اخذها . (٢)

ثم يسرد المستشرق ، كل وجوه الشبه بين
اساطير الكوميديا ، والصور الاخروية المبثوثة في الكتب
الاسلامية ، وفي كتابي الاسراء والفتوحات المكبة
لمحي الدين بن عربي بصورة خاصة ، ويضيق بنا المجال ،

١ - آراء غريبة في مسائل شرقية تعريب عمر فاخوري

ص ٣٧ ، ٢ - نص المصدر ص ٣٩

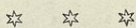
لو اردنا نقل هذه النصوص فللقارىء ان يرجع اليها في مظانها . وزبدة رأيه « ان لتصوفة الاسلام اليد البيضاء في نشأة الكوميديا الالهية » (١).

ويظهر ان المستشرق الاسباني بالاسيوس قد وجه انظار الكثير من المستشرقين لبحث هذا الموضوع بدقة ، فقد كتب لويس غيلية ، عضو المجمع العالمي الافرنسي ، رسالة عن الكوميديا الالهية والاسلام جزم فيها ايضا ان الاداب الاسلامية ، هي المتبع الفيض الذي نهل منه شاعر الطليان (٢) ويسوق على ذلك عدة امثلة ، ولا يلبث ان يقول : « ان دانتي نظر الى قصة الاسراء

(١) آراء غريبة في مسائل شرقية ص ٧٧ .

(٢) مجلة الثقافة المصرية عدد ١٩ ص ١٩ .

والمعراج حين شرع في صياغة ملحمته، فججيم دانتي يشبه ان يكون ملعبا من الملاعب الرومانية يلي بعضها بعضا، حتى تنتهي الى اقصى درجات الجحيم، وذلك هو التصور الاسلامي لهيئة النار، هكذا تخيلها شراحهم ومفسروهم، وعلى هذا الغرار يصورها ابن عربي في كتابه عن المعراج. ورسالته الاخرى عن اسرار مكة، وكذلك ايضا تصورها ابو العلاء في رسالة الغفران.



وتقف عند هذا الحد من الاستطرادات، التي املتها علينا موازنة العلامة الحمصي عن الشاعرين. ويرى القارئ ان اتجاهات المستشرقين تخالف بعض الخلاف الناحية التي اتجه اليها العلامة الحمصي، فقد جعلوا الصور

الاسلامية هي المنبع التي استقى منها داني العوبته بينا جعل الحمصي هذا المنبع الثقافة العربية اولاً، ورسالة الغفران ثانياً لان الرسالة بصورها واشكالها وحوادثها اقرب من تلك الاساطير والنصوص التي اعتمدها لتوسيع آفاق العوبته و كأنه اتفق مع المستشرقين على تجريد داني من قوة الابداع ومن عمق الخيال ولم يكتف بذلك بل اخذ على الافرنج ان يعتبروه ثالث شعراء الدنيا بينا العوبته التي قام عليها مجده الادبي مسروقة من شاعر عربي هو احق منه بهذه المكانة السامقة .

وبذلك تجل لنا حماس علامتنا وغيرته القومية على تراث الاجداد حتى بدا حماسه القومي في هذه الدراسة اعنف من نقده الادبي . ورسالته هذه تعد من اعم

الدراسات التي احتواها الجزء الثالث من كتابه « منهل
الوراد » بل من اوثق المصادر الادبية لدراسة الشعراء
الفذين دائتي وابي العلاء .

مصير اللغة العربية

في المهجر الامريكى

... لنا في الامريكيتين جالية كريمة رفعت اسم

العرب عالياً .

كانت كتلة صغيرة فأصبحت مجموعة كبيرة

وهيئات مختلفة .

عبرت البحر الى العالم الجديد خالية الوفاض لا

تحمل في اطواء صدرها سوى ايمانها القوى واخلاصها

الاكيد للعمل .

دخلت مغامرة وما زالت تدأب وتكد وتعمل
بصمت وصبر وجلد حتى بلغت الذروة وشارفت القمة.

كان المفروض ان تدوب وان تمحي في ذلك
الاقيانوس العظيم بين صخب المادة ودويها ولكنها لم
تذب ولم تمح بل صمدت للاحداث واحتفظت بالخصائص
القومية التي هي شعار العربي ان اتجه وفي اية بقعة هبط..
وما زالت حتى انبتق لنا هناك ، على ضفاف المهندس
والامازون ، هدي جديد كثير الاشعاع ، قوي النور
واللمعان .

وكما نقل العرب لغتهم الى الاندلس فكان لنا من
وراء فتحهم هذا الادب الاندلسي النضير فقد حمل
المغتربون معهم لغتهم فكان لنا هذا «الادب المهجري»

الذي يحلو للكثيرين ان يطلقوا عليه «الادب الاندلسي»
اطلاقهم «الاندلس الجديدة» على البيئات العربية التي
تكتلت في العالم الجديد، وكلها من سوريا ولبنان
وفلسطين، وكونت عنصراً له قواه المادية والمعنوية -
اطلقوا على هذه البيئات (الاندلس الجديدة) تشبيهاً
بالاندلس القديمة التي فتحها العرب، وهم في تشبيهم
لا يناون كثيراً عن الحقيقة، فالفرق ان العرب «دخلوا
الاندلس فاتحين ففرضوا سلطانهم ونشروا هيبتهم وحموا
بسيوفهم مؤسساتهم ومعاهدتهم ولغتهم فدرج العلم
والادب في ظلال اعلامهم، وزها الشعر في خمائل
مجدهم، في حين ان قومنا دخلوا ارض كولو ميس
«مستزقين، طالبين عطفاً، سائلين عدلاً، اما وجه الشبه

ففي هذه الدولة الادبية التي بناها قومنا هناك شأن العرب في الاندلس ، فالاندلس الجديدة نشيئة الاديب المغترب الذي استشهد في سبيل قومه ومن اجل لغته ، زهد في كل شيء ما خلا وطنه ، وقنع بالبيئة لكي يحافظ على لسانه ، وليس الفضل ان تصون لغتك وانت قابع في ديارك وبين عشيرتك ، وانما الفضل كل الفضل ان تصونها وتحتضنها وتشقى من اجلها وانت في ديار غريبة عنك لسانا وعادة وعرفاً^(١) .

ان الاندلس الجديدة هي نشيئة الاديب المغترب ، فقد استطاع غير واحد من فحول الادباء منذ نصف قرن تقريباً ، ان يبدع ادباً جديداً ، يجمع بين النزعة الابداعية ، وان يتجه في بعض صوره اتجاها صوفياً او

(١) مجلة العصبية : حبيب مسعود

انسانياً، كان له اثره حتى في عقول الامريكيين انفسهم حين ترجمت لهم بعض نماذجه مما كتبه جبران وغيره.

وقد اقبل قراء الادب في مختلف الاقطار العربية يقرأون هذا الادب فيجدون صوراً جديدة في منازعه واتجاهاته ، وحين اطلقوا عليه صفة «الادب الاندلسي» ارادوا من ذلك رفته وجزالته وتصويره للخوالج النفسية والنبضات الحسية والنوازع العاطفية ، وقد تلقاه القدماء كأدب هزيل لا يمت الى العربية بصلة ، واخذوا ينقدونه نقداً يتناول المبنى اكثر من المعنى ، والعرض اكثر من الجوهر ، وبالرغم من ذلك فقد عاش في قلوب القراء وفي أخيلتهم لانه صدى لما هجست به نفوس طائفة من الموهوبين ابدعوا اجمل القصص الوجداني ،

وأروع القصائد الحية ، وأمتع التأملات الفلسفية ، ولم يقف انتاجهم عند هذا المحصول الادبي الذي ازدانت به مجتمعاتهم بل ألفوا عشرات الكتب في مختلف المباحث وأصدروا الصحف والمجلات ، وبذلك كوّنوا للعربية مقاما عظيما ، الى جانب عشرات اللغات المتباينة التي تعيش في امريكا .

* * *

لادب المهجر لونه الخاص به ، فهو لون رائع الصور ، لا يمكن لاحد ان ينكر جماله الا من كان ذوقه من فهم الادب الخبل والسقام . على ان هذه الهنات التي تعتور اسلوبه ، وتمس احيانا بعض تعابيره ، مردها ، على ما اعتقد ، الى هجرة المغتربين لتلك الاوطان في فترة كانت الاساليب العربية نفسها تشكو

العلل والسقم ، ثم بعدهم عن المواطن العربية واندماجهم في الحياة الامريكية .. وبالرغم من هذه الهنات التي يشير اليها النقاد فقد ظل ادب المهجر ذا شخصية مستقلة بمنازعه واتجاهاته وصوره وتلاوينه - اريد الادب الذي ابدعه جبران والريحاني ونعيمه وابوماضي وغيرهم وغيرهم من الذين انتظمهم «الرابطة القلمية» في فترة من الزمن ، وهو بشخصيته المستقلة كان ادباً احتل مكانته الرفيعة بين ادبنا الحاضر لا يزال اثره قوياً في نفوس الناشئة تلتهمه كلون جديد من الوان الادب الرفيع .

واتساءل : وقد يتساءل القارىء ، اين هو انتاج «الرابطة القلمية»؟ ويؤمني ان اقول ان انتاجها قد وقف او كاد لو لا هذه التأملات الفلسفية التي يرسلها ناسك

الشخروب ميخائيل نعيمه ، والشاعر الفيلسوف ايليا
 ابو ماضي الذي اجتذبه الصحافة الى رحابها ، وصيحات
 من بعض ادباء عاشوا مع جبران في ظلال الرابطة . ولا
 اريد ان اقول ان صوت الادب في امريكا الشمالية قد
 خفت ، وان صفحته قد طويت ، وان شعلته قد خمدت
 بخمود شعلة «الرابطة القلمية» . . لا . . فلا يزال هناك
 ادباء وصحفيون ومفكرون وشعراء ينظمون شعراً ،
 ويكتبون نثراً ، ويدعون في شتى ميادين الفكر ،
 ولكنه ادب ضعيف رخو غلبت عليه النزعة المادية ولم
 يعد يشع بتلك النزعة المثالية التي تتميز بها ادب جبران
 مثلاً . اي لم نعد نسمع بعد انفراط عقد «الرابطة القلمية»
 تلك الهازيج التي كان يرسلها جبران والريحاني ونييمه

والدرويش وعريضه، ولا تلك الدراسات القيمة التي كان
يحاولها ادباء جريئون تحرروا من مواضع الرياء والمداهنة
- داء الادب الويل!

ان ادب المهجر قد انتقل من الشمال الى الجنوب
الى البرازيل ، فقد قام هناك نفر من الادباء والشعراء
اتسموا بحرية الفكر وبحب الادب ، بينهم اللغوي
المدقق ، والشاعر المنطلق في الاجواء ، والمنشئ الناصع
الديباجة واسسوا رابطة ادبية اطلقوا عليها اسم «العصبة
الاندلسية» وأصدروا مجلة تنطق باسمهم وتكون مرآة
لادبهم وصورة لنزعاتهم التحريرية وأطلقوا عليها اسم
«العصبة» وقد سلخت الى الآن عشر سنوات من حياتها
المديدة ، وهي تقوم بعمل جبار ، وكأنها قد حملت عن

«الرابطه القلمية» عبء التراث الادبي في المهجر. والادب العربي في البرازيل الآن ، كما يقول عميد العصبه ، بين مدّ وجزر ، وقد تنازعته عوامل البقاء والفناء مراراً .. ولد فقيراً بين حفنة من البشر نزحت عن وطنها طلباً للرزق .. ودرج هزيباً لسوء غذائه المادي والادبي ، وشب نشيطاً مجري في عروقه دم استمدته من قافلة ادبية جديدة لحقت بالقافلة الاولى ، وتعطف عليه بيئة ارتفع مستواها العقلي وباتت تتذوق الادب وتقبل على جيده ، وقد دخل اليوم في طور كهولته فأينعت ثماره وطاب شرابه ..

ولكن ما بعد الكهولة ؟

هذا ما لا نريد ان نتوقع حدوثه ؟ فالواقع ، ان

«العصبة الاندلسية» في البرازيل تقوم بحمل رسالة الادب و تراث العرب بامانة و اخلاص ، ولا نكران انها اليوم في اوج حماسها تضطلع بحمل هذا التراث الادبي الذي اصبح جزءاً متمماً لادبنا المعاصر . وكل ما نرجوه ان يظل هذا الحماس مضطرم الاوار والا يصبح مصير «العصبة» غداً - لا سمح الله - كمصير «الرابطة» بالامس ..

ان «العصبة» تقوم الآن على انتاج ادباء حملوا شعلة الادب بين جوانحهم قبل ان ينزحوا عن هذه الاوطان ، وقد ظلت هذه الشعلة تضطرم وهم في تلك المهاجر البعيدة ، بل زادها الحنين الى الوطن وهجاً و نوراً و التماعاً .. ولكن ما مصير الادب غدا اذا آل امره الى ابناهم واحفادهم ؟ .. ويتلقى اولادهم في المدرسة والمجتمع ،

لغة غير لغة آباءهم واجدادهم .. لا شك ان «التأمرك» سيلعب دوره بقوة في نفوس هؤلاء الاطفال الذين ستقطع صلتهم لا بالادب العربي فحسب بل باللغة العربية التي لن يعرفوا منها غير كلمات يרטنون بها دون ان يكتبوا بها . واذا هزّت «آلهة الشعر» بعض الافئدة لكتابة قصيدة او مسرحية ، واذا اراد واحد منهم ان يؤلف في موضوع اجتماعي او علمي كانت لغته الانكليزية او البرتغالية لا لغة آباءه واجداده !

وقد اخذ ادباء المهجر يشيرون الى الخطر الذي يهدد العربية بل لم يتردد بعضهم ان يذكر كلمة «الاضمحلال» في معرض حديثه عن الادب العربي في امريكا . يقول احد شعراء المهجر «ما نحن من المتشائمين، ولكنها

الحقيقة . فكيف نصدق عنها وان آلمت . ان الأدب العربي في المهاجر الامريكية صائر الى الاضمحلال . وقد أشار الى هذا صاحب الهدى المرحوم الاستاذ مكرزل بقوله :

« ماصدور الصحف باللغة العربية في المهاجر الامريكية الا لأن من المهاجر الأول ، من متكلمي هذه اللغة ، عدداً وافياً للقيام بأود هذه الصحف ، وما وجود هذا العدد الوافي الاحداث مهاجرتنا نسبياً . . اما باقراض الجيل الاول من المهاجرين فالصحف مقضي عليها حتماً بالزوال وان كابر في انكار هذه الحقيقة نفر من المدفوعين بالعاطفة اكثر منهم بالمنطق » ؛

ان البيئة الامريكية والمدارس الامريكية

تحتضن ابناء المهاجرين وتلقنهم لغتها وعقليتها ونزعاتها
وعاداتها فما يكاد هؤلاء الاطفال يترعرعون ويثبون
ويدخلون غمار الحياة ويتسلمون هذه المتاجر الكبيرة
والمصانع الضخمة والاعمال الواسعة التي اسسها آباؤهم
واجدادهم حتى يكونوا قد اصبحوا « امريكيين » روحاً
وفكراً وقلباً وقد قطعوا علاقتهم بلغتهم ووطنهم الاقبايا
حين قد يذكرونه بالمناسبات الطارئة، قومية او دينية،
ثم لا يلبثون ان يعودوا الى سلطان البيئه التي احالتهم
« آلات متحركة » تدور مسرعة مع الزمن في تلك
البوتقة الكبيرة التي صهرت ولا تزال تصهر، في جحيمها
او نعيمها لا ادري، مختلف الجماعات وشتى الثقافات !.

قلب الشاعر



قلب الشاعر :

يا لهذا الكون الصغير الذي تلتقي فيه نوازع
الاحلام ، وما في عالم الاحلام من سحر وشعر .

يا لهذا الفردوس الباسم الذي يسكب في نفوسنا
بريق النشوة والذي يبهت انظارنا بما في جوانبه من صور ،
وما في اعماقه من فيض ، وما يبعثه من نبرات حلوة

لذيذة .

فالقيثارة التي تبعث في اذن الفضاء أرق الانغام .
والصاح الغريد الذي يشدو، في سويغات السحر،
اعذب الأُحان .

والطبيعة الرحيمة التي تاجينا باغاريدها وتسكرنا
بصمتها وهدوئها اللانهائي ...

والليل ، وما في سكون الليل، من وحي والهام .
والقلب الدامي الذي ينبض بحب الجمال ... كل
هذه الاصوات ، بل كل هذه الصور الجميلة هل هي الا
مرآة جليلة لما تفيض به قلوب الشعراء كل يوم من
نوازع وميول ؟ ..

قلب الشاعر :

يا لهذا الكون المليء بالعوالم

المسحورة .. بالحب ، بالابتسام ، بالدمع ، بالحنو ، بالزهر ،
بالاغاريد ...

هل انت ايها الخفاق في صدور الشعراء
الازليين اهل انت قطعة من اللحم كسائر القلوب ام
عصارة حية من الشعور والاحساس ..؟

تبكي الأم وحيدها اذا ما غالته يد ظالم جبار ، ويشكو
العاشق صدور محبوبته ، وتجلس الصبية الولهانة قرب
الجدول تناجي من تحب ، وتتشرب الوردة الحمراء عرفها ،
والوردة البيضاء اريجها العطر ، والبنفسجة الزرقاء عبقها
المسكر ، ويحلق الطير في اجواء السماء ، ويجازف الانسان
في كشف العوالم المجهولة والصعود الى اعلى ذروات
الجو ، وتتناحر الافراد ، وتتصارع الجماعات ، ويلتهم
القوي الضعيف تمر هذه الصور كل يوم كخيال

باهت من امامنا لا يحرك منا أي عاطفة كمينة في الصدور
حتى يمر بها الشاعر مرور الطيف بخياله ويلتهمها بشعوره
واحساسه .. ولا يزال يتفخ فيها فيض روحه حتى يرسمها
صورة من روائع الصور وآية خلاصة نفي نحن وتمحي
العوالم وتظل هي خالدة على ممر الايام ..

قلب الشاعر :

أيها الفضاء المغمور بالاحلام... انت طوراً كهذي
السماء المزينة بالنجوم... وطوراً كالخضم الثقيل بالامواج.
يصمونك أيها الشاعر بالجنون ، ويشفقون على
مانت فيه من بؤس وشقاء ، ويريدونك ان تبسم للحياة
كما يبسمون ، وأن تجازف كما يجازفون ، ويقيسون الراحة
والشقاء بما في خزائهم من فضة وذهب ، وفاتهم أنهم

يكدون كالانعام بدون ان يتذوقوا طعم الحياة، ويدورون
على رحي « المادية » التي تسحق شعورهم بدون تفكير!..
ليس لهم هذا المناء الذي ينعم به الشعراء - اولئك
المجانين الذين يساهرون النجوم ويفتسلون في أضواء
القمر وينامون بين أمواج الأثير ، اولئك الذين يركبون
الأخطار ويتذوقون الحنظل ويقتلعون بأيديهم الناعمة
الشوك والعليق ليعرفوا سر الحياة ... واذا يعرفون هذا
السر .. واذا يتذوقون هذه العصاراة من لباب الحياة
يسكبونها قطرة في فم البشرية ... وهم في نفحاتهم الندية
كأنحلة التي تمتص عبق الازهار لتنفثه عسلاً ذائق
الطعم شبيهه !.

قلب الشاعر :

يا لهذا الفيض الذي يشع انوار الخلود

وعدّ الأجيال بلائاً الحكمة واضوائها المنيرة ...
 يالتلك الصور البديعة التي رسمت بنثير الدموع بدم القلب .
 هذا المعري : شيخ فلاسفة شعراء العرب ، لقد
 اتسع قلبه لفيض الألهام فرسم الكون بشروره وآثامه
 وبما في طبيعة الانسان من حقد وضيعنة ، وخبث وأناية
 حالكة السواد .. وأرانا الى جانب ذلك ، نعيم الجنة وجحيم
 جهنم في « رسالة الغفران » .

واتسع قلب «دانتى» للجحيم والنعيم والمطهر فأبرزها
 صوراً تشع بالنار اللاهبة والنور الأزلي المضيء ...
 وكلاهما قد خبر العالم ورأيا ببصيرتهما النافذة ، المنظور
 وغير المنظور ، فارسلا هذه الصور آيات خلدت مع الأجيال .
 وهذا « كوته » شاعر الالمان الفذ ، لقد صهر الحب

قلبه فكتب « الآم فرتر » وهي زيف دم قلب احب حتي
 احترق ... كما كتب « فاوست » تلك الرواية الخالدة ،
 قارانا عوالم جديدة في كل سطر من سطورها ، وفي
 كل كلمة من كلماتها ...

والخيام .. ذلك الشاعر الصوفي الذي باع الكون
 ومافيه من شرور ومتاعب وأهوال برغيف خبز وزجاجة
 خمر وأرض مزدهرة بالأعشاب والازهار الحاملة ..
 وانا تول فرانس .. هذا الكاتب الساخر الذي يكتب
 احيانا بلغة الشعراء .. بماذا فاض قلبه ؟ لقد فاض بالحكمة
 والسخرية ، بالهزل والجد ، بالابتسام الحلو والعبوس المر ، بالشك
 واليقين ، بالاحاد والدين .. ارانا هذه الصور في كثير من
 قصصه : في « تايس » في « الزبقة الحمراء » ... في ملامح تلك
 الباريسية الرشيقة التي كانت كيفما التقت ، في غدواتها وروحاتها

في الليل والنهار ، في الحدائق والقصور البعيدة عن
ضجيج باريس — كانت في مغامراتها تلك لا تصطدم إلا
بموجات عفيفة من الحب العاصف كهدير البحر، ولكن
هذه الموجات لم تكن إلا لتجدد قواها وتبعث فيها المرح
والنشوة ، شأنها شأن ذلك الشاب المتعب الذي يغتسل
بالماء البارد ويتطيب بالعطر في أيام الهجير المحرقة ..
وكان الرجل ، رجل « الزبقة الحمراء » يحترق من الغيرة
ويتلظى على أتون من نيران الاحزان .. لالشيء — لو علم —
الا لانهما كه بمتاعب الحياة دون ان يعرف للحياة هذا
المذاق الحلو الذي يستسيغه الشعراء . نعم ، في قلوب
الشعراء هذا الفيض النوراني الذي ترسم على أشعته
هذه الصور الخلابة التي تزهو على المال وعلى مافي الجاه

الكاذب من قوة وجبروت ..

* * *

يهمس الموت في آذاننا ، كل يوم بأن المال يفنى
وان الحياة اذا ماقسناها بعمر الكون - ليست الا دقائق
معدودة .. اي ورثي ، ان المال ليذوب ، وان صاحب
المال ليصبح أثراً بعد عين ولكن الصور الفكرية التي
ترسمها قلوب الشعراء لتزدان بها السماء والفضاء والارض -
إن هذه الصور تظل في روعتها وجمالها ما كثر
الجديدان وتعاقب الملوان ..

قلب الشاعر :

ايها الفضاء المليء بالاحلام المسحورة

ايها الباسم لهناء الكون ونعيمه

ايها الخافق الباكي لمضض البشرية وأوجاعها

ايها المنتعش ليقظة الحب

ايها النائم في ظل الاحلام

ايها الراقص في غلائل الشفق

ايها العاصف كالرعد

ايها المغمور بالزهر والورد والياسمين

ايها الساجد في محراب الجمال

ليت لكل واحد منا ، هذا القلب القياض

بأرق العواطف وأدق النوازع والاحاسيس ..

نعم ، ليت لنا ولاولئك الذين يدهم تسيير

دفة الكون هذا القلب الذي يخفق في صدور الشعراء
الأزليين ... إذن، كانت البشرية في هناء وأمان ولما
ارتسمت في سماء الكون هذه السحب الدكاء التي
تقذف الحديد والنار وتعمر وجه البشرية بالشرور والآثام.

١٩٢٦

(١)

الافضل الصغير



ليس في هذا الوجود أسمى من الفكر
وليس أخلد من تراث العباقرة ..

• • •

والشعر صورة من صور الفكر .. وهو في مجموعه
بعض هذا التراث الانساني الذي تفخر به البشرية على

(١) القيت هذه الكلمة بمناسبة الاحتفال بتكريم

الاستاذ بشارة الخوري في حلب سنة ١٩٣٥.

سائر الفنون ..

... .

سأني سائل فيم الحفاوة بالشعر في هذا العصر
المادي ودوي الآلات وأزيز المدافع والطائرات يصم
الآذان عن سماع الأنغام العلوية التي تتبثق من
نفوس الشعراء ...

أجبتة : ان النفوس الشاعرة لاتستطيع ان تتصامم
عن سماع الشعر الحي .. والناس فريقان شاعر وغير
شاعر .. ولا أريد بشاعرية الانسان هذه الكلمات
المرصوفة والمقاطع المنظومة بل أريد شاعريته التي تتصل
اتصالاً مباشراً بالحياة والكون فيحنّ ويحبّ ويشكو
ويهجّر ويتألم ويفرح ويعبّس ويتسمم .. وهذه نزعات

لا علاقة لها بمواضع اللغة وأوزان الخليل .. ومن عمر قلبه بهذه النزعات الانسانية فهم الشاعر فهماً مباشراً واتصل به اتصالاً وثيقاً ولو ارتفع بشعره عن المفهوم، وغاص بخياله الى الاعماق او ارتفع الى السماوات ..

...

يقول بعضهم ان الشعر لا يزال من صور البداوة وان الشعراء يهزجون هذه الهازيج البدائية التي تمس العاطفة والشعور دون العقل والفكر .. وينتهون من ذلك الى أن الشعر لا يزال قديم الاتجاه .. وان شعراءنا يستوحون الالهام من القدم وان الذين ينظرون الى المستقبل قليلون .. واحب ان اتساءل لم لا يستوحي شعراؤنا الالهام من الطبيعة والنفس الانسانية .. وهما

اعم واوسع وأخصب من الماضي والمستقبل معاً ..

• • •

ليس الكون إلا قصيدة خالدة .. والشاعر الحق
هو الذي يستطيع ان يرسم صور هذه القصيدة الكبرى
بشعر صادق ونفس صافية الشعور ..

• • •

لقد صدق شيللى حين نعت الشعراء بأنهم شراح
الالهام الآلى .. فهم ، في الواقع يرتفعون عن البشر
ليفهموا حقيقة البشر .. ولكي نفهم الشعر على حقيقته
- وأريد الشعر الحي دائماً - يعوزنا هذا الاستئناس بروح
الشاعر والاقتراب من فيضها العلوي ..

• • •

الشعر صورة للحق والحب والجمال .. فمن لامس
الحب شعاع نفسه وغمرته اضواء الجمال فهم الشعر على
حقيقته العليا .

...

لست أفهم الشعر إلا أنه صنو الجمال .. وإطار
يضم في دائرته بعض الوان الحس ..

فمن نعم مشج ، الى أنشودة مطربة .. الى نبرات
صافية .. الى شعور عميق . الى فكرة يقظة .. الى
انسانية سامية ..

...

ما من شاعر الا وفي حياته رواية اُزلية .. تبدأ
بالحب والاحلام .. وتتأرجح بالشكوك والقلق ..

وتنتهي بالفلسفة المؤمنة ..

النضال والتمرد والعنف .. الحب والألم .. الوجد
والشوق .. الاماني والاحلام .. هي مقاطع من قصيدة
الشاعر الكبرى .

وبعد

فحلم الشاعر هو يقظة الحياة .

هذه خواطر في الشعر والشعراء أقدم بها كلمتي
عن الأخطل الصغير - الشاعر الكبير بشارة الخوري
الذي حمل لواء الشعر اللبناني منذ عشرين عاما او اكثر
ولا يزال ، وكانت صحيفته « البرق » صورة لهمسات

الادباء ونفحات الشعراء .. ثم جاءت الحرب الكبرى
 بويلاتها، ثم طغت السياسة على الأدب فغاص في عباها
 وصارع أمواجها ومازال حتى تعب وأتمهكه الصراع
 فأثر ان يرجع كما بدأ .. آثر أن يكون في حمى الأدب
 يستظل ظلاله ويعب من سلسبيله .. وانزوى يرقب
 صراع الناس ويشهد كفاح الوطن .. يستمع دقات
 القلوب وأنات النفوس فيرسم هذه النزوات بمقطوعات
 تغني عن قصائد، وبقصائد تغني عن دواوين، وبشعر مليء
 بالحس والعاطفة والدمع والأنين ..

• • •

تقدم الأخطل الصغير بثلاث مراحل من
 حياته الأدبية في عالم الشعر .. أي شعره قبل الحرب

العامة .. وخلالها .. وبعد الحرب حتى يومنا هذا ..

وشعره قبل الحرب هو شعر النكتة المستملحة
والتورية الجميلة وهذه المناسبات التي تدفع الشاعر ان
يصف « غمزات الملاح وخطود الحسان وان يشبه النهيد
بالمثمر، والشعر بالدرر، واللحظ بالنبال، والمحبوب بالغزال » ..
وهو شعر تقليدي اكثر منه عاطفي .. لان طبيعة الأديب
العربي في تلك الفترة من الزمن كانت تركز على دينا
البديع .. والشاعر الذي يفر من التورية والتشبيه هو
شاعر مغمور الأسم ..

ولاشك ان شاعرنا كان يضيق بذلك الأفق
الموبوء بأديب الرخاوة والتخنث .. ودليلي شاعريته -

الانسانية خلال الحرب وشاعريته المتمردة بعد الحرب
الكبرى ...

• • •

جاءت الحرب بويلاتها .. وعصفت المجاعة بلبنان
الاشم وكان الموت يحصد الناس حصداً من ألم الجوع ..
وطبيعي ان تهزّ هذه الفواجع قلب الشاعر .. وان تهزّ
«الأخطل الصغير» اكثر من غيره .. فوصف هذه
المشاهد .. ولكنه لم يصفها هذا الوصف الباهت ..
لان الشاعر الملهم يعمد دائماً الى الفن فيستوحيه ..
وقد أوحى اليه ان يرسم قصة تلك اللبناية التي صرعا
الجوع وصرع ابتها - وزوجها في ميدان القتال -
فاضطرت ان تطرق الأبواب مستجدية ، وساقها القدر

الى شاب من الموسرين لم يرحم جوعها بل مهد لها طريق
 الغواية وما زال حتى جادت له بأثمن ما تملكه .. جادت له
 بعفافها في سبيل طفلها الوحيدة التي تقاسي الآلام موجعة
 من عذاب الفاقة وضنك الجوع .. غامرت المرأة بعرضها
 في سبيل « ريال » لم تكذب قبضه بنفس ملتاعة وقلب
 كسير حتى هرعت الى المطعم تتباع بعض ما يرد رمق
 الحياة الى قناتها .. ولشد ما كانت صدمتها عظيمة حين
 صرخ البائع في وجهها: ان ريالك مزيف ايتها الأخت!

ووصف « الأطفل الصغير » في هذه القصيدة -

« قصيدة الريال المزيف » وفي غيرها ويلات الحرب وبكاء

الانسانية وصفاً مؤثراً .. وما اصدقه حين يقول :

انها الحرب ولم تترك على سطحها الا رسوماً بالية

ونفوساً حوّما حول البلى تتمشى في صدور خالية
تشتكي الجوع وتقرى العللا عجباً منها جيعاً قارية
لقد ذهبت الحرب بويلاتها .. ونسي الناس مامرّ
بالبشرية من شقاء وبؤس ولكن بقي شعر « الأخطل
الصغير » صورة واضحة الالوان والأصباغ لتلك الايام
السوداء .

• • •

مرّ «بشارة الخوري بهذين الدورين .. وقد
صقلت الاحداث قلبه فكوّنت منه شاعراً جديداً
أخذ يطل علينا ، بعد الحرب العامة ، بروائعه .. لقد بدأ
يستوحى حسّه العميق ويستوحى ذكرياته ويستوحى
السنون التي تصرّمت من حياته وينفخ العربية بآيات من

الشعر تهزّ القلب وتستثير العاطفة معاً ..

•••

ان من يقرأ قصيدته « عمر ونعم » وقصيدته
« عروة وعفراء » ويمعن بقراءتهما ينتقل حالا الى تلك
الاجواء التي يخلو فيها العشاق الى بعضهم دون رقيب ..
الى هذا الحب العذري - الذي وصفه الشعراء العذريون
وصفاً بليغاً ليس أروع من وصف شاعر لبنان الذي يقول:
بلد الهوى العذري وهو كناية

عن حب اشرف مجمع انساني

يتعاق الروحان فيك صباية

ويعف ان يتعاق الجسدان

فاذا سمعت بعاشقين فقل هما

مد- كان متصلان منفصلان

ولا أعلم أيتحدث شاعرنا في هذه القصيدة عن
«عفراء» ه ، اي عن نزوات حبه أم أحب هذه الصور القديمة
فأزال عنها الغبار ووشاها بحسه العميق وشعره الأنيق ..
هذا ما نريد ان نعلمه ، لأن الأدب الجديد لم يعد يحتمل هذه
الحجب السميكة بين الشاعر وحقيقته ..

• • •

ان من يعمن النظر في بعض مقاطع « الأخطل
الصغير» يحكم لأول وهلة بأن هذا الشاعر قد آمن بحقيقتين :
آمن بالشعر وآمن بالحياة معاً .. وهما جناحان قويان لتخليق
الشاعر في أجواء الفضاء .. ولا أدل على ذلك من هزبه
بأعظم دولة في الكون .. نعم ، ان هذا الشاعر الذي

كوّن من الحس والالم - يهزأ استكباراً بدولة الجمال ..
 بهذه الدولة التي تعنو لسلطانها القلوب دون ان يخشى
 غضب ربات الجمال ..

ماالحسن لولا الشعر الازهرة

يلهو بها في لحظتين النظر

لكنها إن ادركتها رقة

من شاعر او دمة تنحدر

سالت دماء الخلد من اوراقها

ونام تحت قدميها القدر

وأقسم اني ماقرأت لشاعر يعتز بدولة الشعر كما

اعتز بها الاخطل الصغير بهذه الأبيات الثلاثة .. وهذا

هو الايمان باشعر والفن معاً .. ولكن شاعرنا الذي

يرسم بهذه السطور مكانة الشعر السامقة من الحياة
يعود فيتساءل ماقيمة الحياة اذا لم تتمتع بأزاهيرها الشذية
وعبقها الفياح، وهذه جماع الفلاسفة الباسمة - اذا صح لي
هذا التعبير - .

حكمة الدهر ان نعيش سكارى

فاجمعالي الكؤوس والأوتارا ..

واجلوها دنيا ممتعة الحسن

كما تجلوان احدى العذارى

أهب العيش لا ابالك نهباً

واطرح عنك وجهك المستعارا

لست مهبا عمرت غير جناح

حط في الدوح لحظة ثم طارا

اوخيال بدا على الرقعة البية ضياء للناظرين ثم تواری
 ان بشارة الخوري ، الشاعر العاطفي الملهم الذي
 ناجى الجدول والزهر والنجوم والذي أنّ انات موجعة
 في الحرب الكبرى ولم تكذ تستيقظ احلامه بعدها
 حتى بكى « الهوى والشباب والأمل المنشود » .. هذا
 الشاعر المصورّ الذي يسمعك نواح الشكالى وبكاء المحبين
 ينتفض الآن هذه الانتفاضة القوية ليصور انات الوطن
 واجداد العرب بشعر كله موسيقى وكله شمم وابعاء ..
 يذكر لبنان ويذكر سورية ويذكر مصر والعراق
 وكأني به يلتمس زاد شاعريته من هذه النزعات القومية
 العارمة واذا سئل ما الشاعر الدمع والنجوم قد انقلب هذا
 المنقلب اجابك ونفسه مطمئنة :

يريدون ان نكتب لهم شيئاً في الأدب وهم يعمنون
 بعض المقاطع في الغزل والوصف وهو ضرب من الغزل
 الأبيض ينبت في تربة السلم والرخاء وينمو في ظل الحرية
 والاخاء .. فلا نكاد نحاول حتى تصطدم بقصائد حافلة
 من الأدب الأحمر ينظمها غاندي واتباعه في الهند ،
 وسعد واخوانه في مصر ، كما ينظمها الفرنسيون في ثورتهم
 يوم علقوا قصيدة حمراء في كل شارع وعلى كل جدار ،
 وفي رأس كل حربة ، وكما ينظمها كل شعب « شاعر »
 يستمد من دمه حبراً لكتابة القصائد الخالدة - قصائد
 النخوة والاخاء والحرية ويتساءل شاعرنا ما قيمة الأدب
 الأبيض إذن .. ذلك الأدب الساكن ، الهادي
 يرسله العشاق انات متقطعة اثر حبيب هاجر ، وغزال

نافر اذا قيس بالأدب الأحمر يطلقه الثائرون للعدل
والحرية من صدورهم شرراً يبري المناصل وتكتسح
المعاقل .. ماهي قيمة هذه النغمات توقع على الأوتار بين
الكأس والزهر اذا قيست بضربات المطارق تحطم القيود
عن الأعتاق ، وهتاف الجماهير يدك حصون الظلم
والاستبداد .. واذا يتساءل هذا السؤال ينتهي الى ان
كلاً من الأدب الأبيض والأدب الأحمر متلازمان
لا ينمو ذاك اذا لم يمهده لهذا .. وان الشعوب التي لاتعني
بقصائدها الحمر لاتستحق لها قصائدها البيض !

هذا هو رأيه في منحى الأدب .. وهو لهذا قد
هجر تلك الألوان الانسانية ليصف منازع الشعوب
العربية في نضالها القومي ، وبالله ما بلغ ابا عبد الله وهو

يشير الى الوعود المعسولة بقوله :

الاماني التي افترت لنا

بدلت ايضها الزاهي بنقس

والجراحات التي نحملها

بسمات الهزء من آمال أمنس

كم حشوا اذناً بوعد كاذب

مثلما يحشى فم الميت ببرس

ورأينا حملاً لكننا

كشف التجريب عن اهرت طلنس

نكبوا « المصلوب » في موطنه

ورموا خمسته القرحي بخمس

زعموا انقاده حتي اذا

زغرد الناقوس باعوه بفلس

هذه هي المراحل الثلاث التي مر بها «الاءخطل

الصغير» .. وقد كان في كل مرحلة من مراحل حياته

الشاعر المصور ، الدقيق الحس ، الموسيقي النغم ، الأتيق

اللفظ ، وهذا الذي يجعل له هذه المكانة العليا بين

شعراء العربية المعاصرين .

الشعر والاحلام

في جلسة هادئة ، ومع شاعر شاب يمتاز بصفاء التفكير وروعة الأحلام اخذ يحدثني عن اتجاه جديد في الأدب بعد ان انكر هذا الطنين الداوي الذي يقوم عليه ادب اللفظ والصيغة والتزويق الذي تقرأه فتشعر بشيء يهز سمعك دون ان يمس نفسك ويريك هذه الصور الجميلة لما تحسه وتشعره، وصديقي الشاعر يكتب بالفرنسية ، واذا حاول ان يرسم اهتزازات نفسه

بالعربية التمس لها رداء غير فضفاض .. رداء يوائم ظل
 الصورة وروح الفكرة . نعم ، التمس لها هذا الرداء عند
 اصدقائه الذين يكتبون العربية ويجيدون كتابتها نظماً
 ونثراً ، وكثيراً ما يأتونه بتعايير بعيدة جد البعد عن
 روح القصيدة وكأنهم يهينون له - او للقصيدة - عباءة
 وسروال وعممة .. ولمن؟ .. لفتاة باريسية متأنقة . في الواقع ،
 أن جمال الفتاة لن يغيب في العباءة والسروال والعممة ..
 وقد تبدو اجمل مما هي في هذا الزي الجديد .. ولكن
 رجال الفن المخلصين لفهم ينكرون هذا العبث ويقولون
 لك انه جمال مشوه عمره عمر الورد ، قد لا يمضي عليه يوم
 الا ويعتريه الذبول ، وذبوله من فقدان التناسق والانسجام .
 التناسب في الجمال والوحدة في القصيدة امران متلازمان! ..

قال صديقي ؛ - ولم اشرح بعد فكرته الجديدة -
 اني لآتهم العربية بضيق اللفظ وكثرة التعابير وهي
 التي وسعت كتاب الله لفظاً وغايةً - على حد قول
 حافظ ابراهيم ولا أنكر - من جهة ثانية - ان
 الترجمة الصادقة - في الشعر - ضرب من المحال ..
 ولكن - وثقافتني من دراسة العربية محدودة - أقف
 مبهوراً حين اريد ان انقل قطعة من شعري الى العربية
 فلا أجد الكلمات المماثلة للغة الشعر بالفرنسية ، ثم
 تلاقطة من شعره وقال :

ان الفكرة واضحة ، كما ترى ، واني ارمز فيها الى أشياء
 قد لا يلمسها القاريء في بيت واحد أو بيتين ، لأن الشعر
 عندي - ليس ضرباً من الموعظة والحكمة حتى تلمس

قوته في شطر أو بيت ، الشعر في روح القصيدة ، في
 الاثر الذي يتركه في النفس ، في عمقه وشموله ، في بعده
 عن التزويق والطنين ، في ان لا تكثر فيه الاصباغ
 المتنافرة ، في أن يكون صورة حية للعاطفة والحس الدقيق ،
 في بكاء الطفل وعطف الأم ، في انسانية الرجل ، في
 صراخ شعب ، في قمع ظلم ، في بسط عدل ، في موسيقى
 صامته ، في وحدة هادئة ، في حلم أزلي ، في حب مبرح ..
 في كل ذلك تجمعها فكرة صافية تنحدر من قلب شاعر
 عميق الخيال آمن بالفن وآمن بالأدب ايمان المؤمن
 الصادق بالله وملائكته ورسله .. وإذا لم نهدم أيها الصديق
 هذه البيوت المفككة وهذا الاضطراب الذي يخل
 وحدة القصيدة ، فان الشعر العربي سيظل نوعاً من

الهذرو لونا من الثرثرة .. يستثير ايدي السواد في الحفلات
 العامه فتصفق وتصفق دون ان يكون للفكر اثر في هذا
 التصفيق ! ..

قال صديقي : اني ادعو ، واريدك ان تدعو معي الى
 خلق « الوحدة » في القصيدة العربية ، اي ان تكون
 الصورة ذات انوان متناسقة وان لا يزول اثرها في نفسك
 في التوف والساعة بل يظل مع الايام ، عليك ان تذكر
 هذا الاثر ولو بعد عشرين عاما مثلاً لان الاثر الصادق
 في النفس لا يزول ابداً بل تظل اشباحه تتراقص امامك
 كلما تقادم عليها العهد ..

واردف صديقي يقول : لا اعلم اذا كنت حدثتك
 عن ذينك الشابين وقد اخذا يشيدان بجمال قصيدة لشاعر

معاصر — ولا انكر على الشاعر قيمته الفنية واثره في
تجديد الشعر — ولكن اردت ان افحص مدى تفهم هذين
الشابين لحقيقة الشعر ولهذا اللرن من الاعجاب . فأخذت
القصيدة منهما ورجوتها ان يحدثاني عن اثرها في نفسيهما
فوقفا مبهوتين وطلبا ان يقرأها مرة ثانية وكانا قد سمعاها
من الشاعر اكثر من مرة وتلواها مرات — ومع ذلك
اعدت اليهما القصيدة فقرأها بامعان وكانت النتيجة انهما
وقفا وقفتهما الاولى .

لست في هذه القصة انتقص الشاعر وهو
اكثر شعرا لنا المحدثين مراعاة لوحدة القصيدة بل
احبت ان اشير الى اولئك الذين لا يهتمون لهذه الناحية
ولا يلتمسون الاثر الذي تتركه القطعة الادبية في نفوسهم

بل يكتفون بالجرس اللفظي وحسبهم من الموسيقى رنينها
الداوي دون اثرها العميق الصافي . هذا ما ينكره دعاة
المدرسة الحديثة الذين يدعون الى ادب الفكرة
لا الى ادب الانشاء ، اي الادب الذي يترجم عن النفس
البشرية ترجمة صادقة لا اثر فيه للبلاغة التي تعتمد على ضخامة
اللفظ وقوة البيان ، وبعد فقد اكون مهتد لآراء صديقي
الشاعر دون ان اشرح هذا الاتجاه الذي يدعو اليه فلندخل
الموضوع دون ان ندور حوله كثيراً .

ما الاحلام ؟ وما اثرها في النفس وفي الادب ؟

يقول النفسانيون وعلى رأسهم فرويد وامثاله : الحلم
ظاهرة من الظواهر النفسية المعقدة التي تستحق العناية
والدقة والبحث . وانه ليس - كما يقول بعض القدماء

— اثاراً مشوشة لاضطراب الخلايا والمراكز العصبية
اثناء النوم ولا بقية من بقايا النشاط العقلي الذي ضعف
بانتهاء اليقظة، ولكنه عمل عقلي خاضع لقوانين وقواعد،
فلا يبحث العلمي فيه مجال فسيح، وليست دراسته مفيدة
من الوجهة العلمية فحسب بل منتجة جداً من وجهة التحليل
النفسي والعلاج النفساني، وينتهون من بحرهم ودراساتهم
الى نقطة دقيقة وهي ان ليست جميع الاحلام مجرد
خيالات تمر وتنقضي بلا داع ولا غرض ولكنها مثل
احلام اليقظة مرتبطة بحياة الانسان وتجاربه وميوله اثناء
اليقظة.. ووظيفتها الى كل ذلك تحقيق الرغبات المكبوتة.
وقد تسأل ايها القارئ — وايريدك ان تسأل — ما
علاقة الاحلام بالادب؟ وما لون هذا الاتجاه الادبي الذي

حدثنا عنه؟ وها أنا أحب ان اواثق بين ما قدمته وبين
نظرية صديقي التي تقوم على ركام من الاحلام! .. ولا
بأس ان تتجرد، ايها القاريء، من عالم الحقائق وان تكون
- ولو للحظة من اللحظات - شاعراً يحس احساس الشعراء..
فصديقي شاعر وحديثه حديث الشعراء، وفكرته فكرة
شاعر يحيا بالاحلام اكثر مما يحيا باليقظة - والاحلام يقظتها
الجميلة - وها اني انقل الى القراء نظريته التي انتهى
اليها بعد دراسة طويلة للآداب الحية واطلاعه على نماذج
قوية من الادب العالمي وهضمه الكثير مما كتبه الادباء
الموهوبون - والشعراء الحالمون منهم بصورة خاصة -
وتلخص نظرية صديقي في اعتماده على احلامه لخلق ادب
جديد، ادب غريب عند البعض ولكنه ادب فيه سمات

الشاعرية الحققة . قال :

ان اكثر ما كتبتة وما احاول ان اكتبه من شعر -
 هذه المقطوعات التي ارى فيها نفسي وأرى في بعضها
 الكون بمختلف صورته ..

هل تعلم ، انني في كثير من الليالي ، انتحي ناحية
 بعيدة واغط في سبات عميق وآهياً لان اقتنص حلاماً
 جميلاً .. وكثيراً ما يكون هذا الحلم مادة دسمة لقصيدته
 اكتبها .. والشعر ، في الواقع ، هو نوع من الوحي . . لون
 من الغيبوبة و « اللا شعور » ، وهو عاطفي نفساني اكثر
 من اي شيء ، وان الشعر الذي يقوم على التفكير ليس
 يعد من الشعر قطعاً .

قال صديقي ، وما دام « اللا شعور » هو المنبع الثر

للشعر الحقيقي ، فآتي احاول حين انسج خيوط نفسي في
 هذا الذي تسمونه قصائد - ان ارجع الى الينبوع الاصلي ،
 الى اللاشعور ، الى هذه الغيبوبة الهادئة ، وبكامة ادق الى
 هذا العالم الجديد - عالم الاحلام الذي يفيض على ما اكتبه
 بعض الصفاء والهدوء الذي ينشده الشعراء الخالدون ..
 وحين يمر الشعر من تحت هذه القنطرة - قنطرة الاحلام -
 يشعر بوحده ، وتترامى له الخيالات ألواناً ألواناً ، ويحس
 بابتعاده عن ضجيج الحياة واثقالها ، عن المنطق وعن كل ما هو
 مادي ، عن هذه الجرائم السامة - هذه المكروبات التي
 تفسد جمال الخيال ، عما يفرضه التزلف والرياء وما
 يتقارضه البشر من ثناء كاذب وما يشوب حياتهم من
 حقائق واكاذيب .. انه يخرج من هـذا العالم المادي الى

تلك الآفاق العلوية الغريبة التي ترف بالخيالات ..

حين يكتب الشاعر احلامه بهذا الجو السحري ،
 المليء بالغرائب ، وبما هو اجمل من الاساطير ، يحس ان
 كلماته اخذت تتلون بألوان غريبة ، بمعان جديدة ، بصورة
 رمزية قد يصعب فهمها في حالة اليقظة ولكنك تشعر انها
 موجات من الجمال ، وانك ازاء صورة من صور الطبيعة
 فلا ألفاظ فخمة تطغى على المعاني الناعمة ، ولا معاني مجردة
 من لباسها الايق ، وكم تعجبني كلمتك - قال صديقي
 بعد ان اسمعني قطعة من شعره - وأنت تعلق على هـ - هذه
 القصيدة بأن الانسان يشعر وهو يقرأ هذا النوع من
 الشعر انه التصق بالكون في ليليه الهادئة ، بالبشرية في
 ساعات صفائها ، بالنفس الشاعرة ، بالروح الصامتة وانه

خلا - اى الشعر من هذه الترهات التى تسود اكثر
 شعرنا - هذا الشعر الذى اصبح ، وسيصبح نماذج مشوشة
 من هياكل عظمية او كتلا صفراء من اللحم المتعفن .
 قال صديقي :

ان الشعر فى عصرنا هذا قد وصل الى درجة
 الهرم .. لقد مرّت عليه اجيال طويلة تبدّت خلالها
 الافهام والازواق .. ولذلك يجب ان يبعث جديداً ، ان
 تدخله عناصر التجديد ، ليس التجديد فى الجزء بل فى
 الاساس . واذا قلنا ان الادب فى حاجة الى البعث والى
 اكتشاف ينابيع جديدة وحاولنا ان نبحت عن هذه
 الينابيع وجدناها فى « الحلم » .. فى هذه المادة الصافية التى
 تستطيع وحدها ان تفتح فى عالم الادب آفاقاً جديدة ،

وبكلمة موجزة فننطق «الاشعور» هو اساس بعث
الشعر وتجديده .

وزاد صديقي قوله :

لا شك ان ادراك هذا النوع من الادب صعب
تناوله .. لانه لون من الرمز ، ولا يمكن ان يكتب كل
حلم بل الاحلام المتناسقة التي تولد في جو من الوحدة
والحياة .. وهذا اللون من الادب محدود جداً .. اذ
لا يستطيع كل انسان ان يرى احلاماً تؤاياه ادباً جديداً ..
من ادب «الاشعور» الى ادب صاف لا يقلقه المنطق
فيستوحي مادته من صور الاحلام .. واني لا اعتقد ان
ادب « ادكارو » هو نوع من هذا الادب . في الواقع ، ان
مقطوعاته كتبت في حالة اليقظة ، ولكن اذا اردنا ان

نردها الى عناصرها الاولى رأينا ثمة تشابه بينها وبين
الاحلام .

من يدري ان لا يكون هذا الشاعر العظيم قد فكر
في هذا النوع من الادب .. مع اعتقادي ان محاولاته لم
تقم على « اللاشعور » والاحلام .. واذا خلق هذا اللون
من الادب الذي اعتمده فيما اكتبه من شعر .. فيكون
ادكارپو خير من يمثله : ادب صاف وليد الغيبوبة
واللاشعور .

قال صديقي : قد يكون شرحت لك الفكرة بايجاز
دون ان اعمد الى توضيحها، وقد تكون هذه الجلسة غير
مؤاينة لمثل هذه الاحاديث . قلت له : صدقت اني في
شوق الى جلسة ثانية نظير هذه الجلسة التي امتدت

بنا الى اخريات الليل حيث يحلو الحديث عن الشعر
والاحلام.

* * *

وصديقي لا يتعد في نظريته هذه عما يرمي اليه
العلماء النفسيون - فرويد وادلرويونغ في مدرستهم -
مدرسة التحليل النفسي ، التي لم تعد في الفلسفة والادب ..
يقول الاستاذ سلامة موسى ، اذا كانت الآداب
ونظريات العمران قد تأثرت في النصف الثاني من القرن
التاسع عشر بنظرية « التطور » التي شرحها داروين فان
الادب والفلسفة في وقتنا الحاضر يتأثران بنظريات العقل
الباطن والتحليل النفسي . وأهم ما قامت به هذه المدرسة
هو ان تسعة اعشار تفكيرنا يجري على غير وعي او دراية

أي انه يجري فيما نسميه « العقل الباطن » او « الواعية الخفية » حيث تحدث الاحلام في النوم، والخواطر اليقظة وان هذا العقل الباطن هو الحد الذي يقرر اخلاقنا ويرسم لنا مثلنا العليا ويكون اذواقنا وعقائدنا ويرسم لنا من حيث لا ندري خطة معينة تجري عليها في حياتنا . وخالصة « التحليل النفسي » انه يقول اننا في مظاهرننا العادية امام الناس نتخذ شكلا او تتكاف وضعا قد يختلف بل قد يتناقض مع حقيقتنا وكنه نفوسنا واننا اذا اردنا ان نتقف على هذا الكنه او هذه الحقيقة فيجب علينا ان نبحت عن احلامنا وخواطرنا لانها تصدر عنا مطابقة عفو النفس . وهذه الاحلام التي تبدو لنا خزعبلات وترهات وسخافات هي عمل طبيعي مثل اي عمل آخر لا يمكن ان تنشأ

بلا اسباب . وهي من هذه الوجة يمكن ان تعتبر المادة
الخام للتفكير الانساني كيف ينشأ وما هو الذي يدفع اليه
ثم كيف يسير وما هي طريقه ..

والحلم الى هذا ، هو الطريقة البدائية للتفكير فاذا
درسنا ووقفنا منه على الدوافع والطرق عرفنا منه ايضاً
تلك الدوافع التي تقرر اخلاقنا وتلك الطرق التي يتم بها
تفكيرنا في حال اليقظة وللقراء ان يلتمسوا هذا الرباط
الوثيق بين ما يرمي اليه صديقي الشاعر وبين هذه الآراء
التي يقول بها فرود وادلر ويونغ ..

١٩٣٦



لجنة سرية عن :

سير الحركة الادبية في سورية

خلال الحربين العالميتين ١٩١٨ - ١٩٣٩

كان الادب العربي في سورية قبل الحرب العامة
-١٩١٤-١٩١٨م - ادب مباسطات وتورية ، ادب جناس
ومطابقة ، ادب قصيدة وخطاب يتليان في حفلة عامة
فيستدران الايادي بالتصفيق ، ليس عليه هذه المسحة

المثالية والنزعة التحريرية التي ينشدها ادباء الشباب في هذه السنوات التي اعقبت الحرب الكبرى (١) .. واذا استثنينا بعض لمحات صحفية وقصائد حماسية كانت تثير في نفوس الشباب الحس القومي تديداً لهذه النزعات التي اثارها الاتراك بعد اعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ - اذا استثنينا هذه الصيحات - وهي ذات لون خاص من الاتجاهات القومية - فالادب العربي في سورية كان ادباً ضعيفاً، كل مادته هذه البهرجات وهذه الشعوذات التي تقوم على الصنعة والبديع او على التصوير والتوشيع، لا يتصل ابداً بأدب الحياة .. واحسب ان سائر الاقطار العربية لم تكن احسن من سورية في هذا المضمار، فالادب

(١) كتب هذا البحث سنة ١٩٣٢

في مصر في تلك الفترة هو ادب القصيدة والمقال-قصائد شوقي وحافظ والمطران ومحرم والكاشف وهذه المقالات البيانية يكتبها المنفلوطي او يترجمها السباعي او يرسلها ولي الدين يكن لمحات تأثرة في السياسة والادب والاجتماع.

وجاءت الحرب فوقف النشاط الفكري ودكدت الحياة الادبية وانقطعت هذه الصلات بين مصر وسورية، وشغل الناس عن الادب بالحرب وبهذا، الطغيان الذي فرضه الدكتاتور التركي احمد جمال باشا الذي صلب احرار العرب ونشر في البلاد جواً بغيضاً من الرعب .. وقد كانت سورية في تلك الفترة ذات احساس غريبة فلم يشعر السوري كالفرنسي او كالألماني مثلاً انه في هذه المجزرة الكبرى يدافع عن وطن يحاول عدو ان

يمس كرامته او يضل به اياه .. لقد كانت جزءاً من المملكة
العثمانية .. وكانت تحاول ان تخرج من هذه المجموعة لتنضم
الى «الوحدة العربية» التي نادى بها احرار العرب ودشنها
الملك حسين بثورته الدامية .. فكان شعور السوريين من
الناحية القومية يختلف عن شعور اية امة قد اشتبكت
بحرب ، كان يتجه الشعور الى الرغبة بانتصار الحلفاء ، أي
ان تنتصر انكارترا التي وعدت العرب بالحرية والاستقلال وان
تنتصر معها حليفها فرنسا على العثمانيين وعلى الالمان ، نعم ،
كان شعور السوريين القومي يتجه في دائرة الكبت والرغبة
الحارة بانتصار الحلفاء لينشق من وراء هذا الفوز نور جديد
وحرية ضائعة فاحتمل السوريون خلال اربع سنوات الحرب
شتى انواع الظلم والارهاق ، وقد دهمتهم المجاعة ففتكت

فتكأ ذريعاً في ناحية كبرى من نواحي الوطن حيث كانت
النفوس في لبنان تقع صرعى الجوع وفريسة البؤس
والشقاء لا سيما في اوساط الطبقات الفقيرة .. وكان كل
ذلك مدعاة لأن يرسم الادباء بعض هذه الخلجات ، وأن
يصوروا هول الحرب وهول المجاعة وما عانتها بلاد الشام
من احداث .. وهذه نوازع صارخة تثير شعور الاديب
لأن يرسم هذه الاحداث بقوة .. واكن شيئاً من هذا
لم يكن ، فقد انصرف اكثر الذين يحسنون الكتابة
وينظمون الشعر الى تمجيد الطاغية جمال بشعر كله ملق
ورياء .. ومرت ايامهم بالزلفى والعبودية وعدوها « تقية »
لا بد منها .. وهكذا مرت هذه الفترة من حياة السوريين
- وهي ملائى بالعظات - دون ان نرى هذا الاديب الملهم

الذي يسجل هذه الاحداث بأدب حي ، وبشعور انساني صادق ، ولم تلد المطابع في سورية ولبنان اثرا واحداً يرسم هذه النكبات ، حتى بعد ان وضعت الحرب العالمية اوزارها ، مع ان العوامل الانسانية كانت مؤاتية لها بشكل عجيب .

✱ ✱ ✱

انبثقت الرغبات والاحلام بعد الحرب وأخذ الناس يتساءلون ما الذي جد في العالم ؟ وأخذ الادباء السوريون يتساءلون ما الذي جد في مصر خلال هذه الفترة الطويلة .. كانت سوريا والعراق تتغذى بقصائد اسماعيل صبري وشوقي وحافظ والمطران وبهذه المقالات يرسلها ولي الدين يكن والمنفلوطي ، وبهذه الآراء والمجادلات الاجتماعية والدينية التي اثارها قاسم امين وفريد وجدي حول تحرير المرأة ، ثم

بهذه الكتب التي نقلها فتحي زغلول عن اديمون ديمولان
وغوستاف لوبون وما سبق هذه الفورة الادبية من انبثاقات
فكرية خلقها جمال الدين ومحمد عبده والكواكبي والشميل
وصروف، كل في ناحيته، - تطلّع الادباء الى مصر
يبحثون عن الانتاج الفكري الجديد واذا مصر هي ايضاً
لم تنتج شيئاً خلال الحرب .. وبانطبع لم يكن القطر العراقي
احسن من مصر وسورية في هذا المضمار.

* * *

وواجه العرب، وبلاد الشام بصورة خاصة، منذ
الفترة التي اعقبت الحرب الكبرى حتى الآن - مشاكل
جديدة في حياتهم السياسية لائن الوعود البراقة ذات
الاحلام المجنحة التي خدّرتهم خلال الحرب الماضية لم

تكن الاسراباً خادعاً . فقد استيقظت المطامع السياسية
بشكل صارخ زري ، ووقف القوي ازاء الضعيف يعلن
صلفه وجبروته ، وعرف الشرق اوروبا معرفة صحيحة بعد
ان كان يحمل لها الاجلال والقداسة . لقد كانت اشبه بمثله
الاعلى في الكمال الانساني . واذا هي ، في الشرق ، غير ما قرأه
عنها في الكتب . انكرها سياسياً انكاراً يوازي ايمانه بها
علمياً ، وكان لا بد من الصراع - صراع الحق مع الباطل ،
ومرّت هذه السنوات الطويلة ١٩١٨ - ١٩٣٨ ولا يزال
الشرق العربي يصارع في سبيل توطيد كيانه السياسي
والفوز بحريته الغالية ، فاذا كان موقف الادب العربي
من هذه الاحداث ؟ ثم هل تطور الادب في سورية خلال
هذه الفترة ؟

للجواب على السؤال الاول نقول إن الادب وقف
 حائراً ، لم تعال صيغته ، ولم يؤد رسالته ، اللهم الا بعض
 قصائد جوفاء وأنشيد حماسية ليس لها هذه القيمة الادبية
 العليا ولا هذه النزعات الفنية الصميمة .. مع ان الصحافة
 - والانصاف يدعونا ان نسجل هذه الظاهرة - قامت
 تؤدي رسالتها باطمئنان وتصف هذه النزعات القومية التي
 اخذ يحسها السوريون .. وكانت تستهدف بأبحاثها ماضي
 العرب وفتحاتهم وحضارتهم وحقهم في الحياة ثم غمز مر
 للاساليب الاستعمارية وتقديس للشعور الوطني .. وهي آراء
 ولمحات عاطفية كان يتناولها الصحفيون بدافع من شعورهم
 القومي وبحكم مهنتهم .. وحتى هذه الخلدات الحارة لم
 يسجلها اديب بزعة فنية ولم يعرض لها مؤلف هذا

العرض التاريخي الذي تطبعه الدراسات الادبية بطابعها التحليلي المتزن .. فقد كان المفروض ، ونحن تحت ضغط هذا الحماس الذي ظل مكبوتاً عدة قرون - ان يتقدم كاتب بليغ او اديب موهوب او مؤرخ يجمع صفة الكاتب الاديب فيخرج اكثر من كتاب واحد عن تاريخ العرب ومدنيتهم والدور الفذ الذي لعبوه في تاريخ الانسانية .. او عن هذه الحركات القومية او عن التطور الاجتماعي او غير ذلك مما له صلة وثيقة بالحياة الفكرية .. ولكن شيئاً من هذا لم تواجهه حركتنا الادبية ، وظل الادب - وهنا نحب على السؤال الثاني - طفلاً يحبو او شيخاً اقعده السنون عن السير لا يعرف كيف يتجه .. حسب من القوة والفخار ماضيه السحيق الذي يمت الي الاداب العربية

العربية القديمة بنسب عريق ..

وإذا كان للعوامل السياسية أثرها في تطور الادب او
 خموده فمن الانصاف ان نقول ان هذا الشعور الكمين
 الذي استيقظ بقوة خلال الحكم العربي في عهد الملك فيصل
 قد انكمش بقرة ايضاً بانهباء عرشه ودخول الافرنسيين
 الى سوريه .. وما هي الا سنة وبض سنة حتى فكر صفوة
 من ادباء دمشق ان يبعثوا الحركة الادبية مجدداً فدعا
 خليل مردم بك في ٤ اذار سنة ١٩٢١ رهطاً من الادباء
 والشعراء الى منزله حيث اسسوا جمعية « الرابطة الادبية »
 وكان الباعث الى هذا العمل، كما جاء في بيان الجمعية : « حاجة
 الادب العربي الى نهضة توقظه من سباته وتبعث فيه روح

النشاط ، وان كل مجهود يبذله افرادهم متفرقين لا يأتي بالثمرة المطلوبة فأزمعوا على انشاء جامعة ادبية تلم شملهم وتوحد قواهم « وقد رأوا ان يصدروا مجلة لتكون لسان حال الجمعية فصدرت مجلة « الرابطة الادبية » باسم الجمعية وذلك في اول ايلول ١٩٢١ واشترك في تحريرها ادباء الشام وصفوة من ادباء بيروت يعاونهم بعض ادباء العراق وقد اوضح الاستاذ خليل مردم بك رئيس الجمعية ورئيس تحرير المجلة حالة الادب في ذلك العهد بقوله :

« ادبنا اليوم اشبه بمريض الحت عليه العليل والامراض حتى أمضتة .. اما علاجه فهو لا يعدو احد قسمين لا يجوز التفريق بينهما وان اختلفا .. تعهد جسمه الفناحل الضاوي بالتقوية ، والثاني نفي الاوضاع التي علقت ببدنه ، وكان

منها بؤرة جرائم خارت له عزائمه ، فعلى من يتصددى
لمعالجته ان يكون بائياً وهادماً ، وطبيباً وجزاراً ، ونعني
هدم ما تداعى من الفاسد وبناء الصالح مع حيطة المتين
منه « ورغم هذا الشعار الحاسم : شعار الهدم والبناء الذي
اتخذته المجلة هدفاً لها فقد كانت تعمد الى الترميم والرجوع
الى الماضي اكثر من مسيرة النزعات العصرية .. واذا
صححت كلمة الحكيم الافغاني : « ما دخلت السياسة
شيئاً الا افسدت » . وهي صحيحة ، فقد تخوفت السلطة
الافرنسية من انبثاقات الادب القومي ، فلم يمر على ظهور
المجلة تسعة شهور حتى اصدرت امرها باغلاقها ، وبذلك
انفرط عقد الجمعية ولم تستطع ان تعمل على بعث الحركة
الادبية - هذا البعث الذي كان يجره ادباء الشام .

وصدرت بعد ذلك صحيفة « الميزان » في دمشق ،
وهي جريدة اسبوعية كان يصدرها المرحوم احمد شاكر
الكرمي ، الاديب النقاد الذي بدأ حياته الادبية بتحطيم
اصنام الادب ونقد كل اديب او شاعر يقوم ادبه على
الصنعة والبهرجة والزيف .. واستمرت سنوات .. ولكن
الاقدار القاسية لم ترأف بهذا الاديب الحر فقد دهمه السل
وهو في ريعان شبابه ، فخرست نهضتنا الادبية بوفاة اديباً
نقاداً كان سيكون له شأن في تحوير مجرى الحركة الادبية
في سورية وتوجيهها توجيهها صادقاً ..

* * *

هذا الادب المريض الذي الحّت عليه العمل كما قال
خليل مردم بك كان يتطلع الى طبيبه الحاذق .. وكان
« المجمع العالمي العربي » يضم الكثير من الاطباء . واكثرهم

كانوا يحاولون انقاذ علته بطب ابن سينا لا بطب باستور
مثلاً .. كان ادب اكرم ثم ضربا من المحاكاة والتقليد ،
ليس عليه النزعة المثالية ، فوقف حيث هو يشكو آلامه
المبرحة .. وتطلع الشباب الى مصر وادبائها والى المهجر
وشعرائه .. واذا نحن ازاء ألوان حية واصداء متنافرة تجمع
بين النزعات القديمة والنزعات الحديثة ، وبين الادب
الوجداني والادب الكلاسيكي .. واذا جبران الشاعر
المتصوف يطل بأرائه الخيالية ، وطه حسين بدراساته التي
وجهت الادب العربي توجيهاً جديداً ، وهيكل بروحه
المنطلقة ، والرافعي بخصوصياته العنيفة وثورته على كل جديد ،
والبشري بأسلوبه العباسي الايق الذي يطل من كوة
ضيقة على تطورات هذا العصر ، وسلامه موسى بأرائه

الجرئية ودعوته الى الاستغراب والى احياء الادب الفرعوني بدلا من الادب العربي القديم، واذا نحن ازاء تلخيصات شاملة لبعض المذاهب الفكرية في الغرب وازاء مشكلة جديدة اطلق عليها مشكلة « الادب القديم » و « الادب الحديث » أثارها الادباء المصريون بقوة وعنف - هـ - هذه المشكلة التي استمرت عشر سنوات كاملة منذ ٩٢٢ حتى سنة ٩٣٢ الى ان انتهت عند هذه الناحية التي اعتبرت انصار القديم - سواء في ميادين الادب او ميادين التفكير - اولئك الذين لا يريدون التحول عن الماضي حتى في عنعناته ، وحسبهم من الادب تقايد ما انتجه الادباء والشعراء في العصرين الاموي والعباسي، فهو مشأهم الاعلى في الادب - بينا انصار الادب الحديث قد اتجهوا اتجاها يختلف كل

الاختلاف عن مذاهب خصومهم .. فقيمة الادب عندهم
في الابداع لا في التقليد، وفي المعنى قبل المبنى .. وفي ان
تقرب ادابنا من الاداب الحية لا ان تظل في عزلتها ..
وانتقلت هذه الاراء وهذه الاتجاهات الى سورية ولكنها
لم تحرك الادباء السوريين، او «الكادميين» لدخول
المعركة .. ووقف ادباء قبل الحرب ومن نحائهم من
ادباء المدرسة الكلاسيكية، سواء في سورية او في لبنان
يرقبون هذه المعارك بهدوء وحذر .. ويحزن ان نشير هنا
الى ظاهرة يامسها كل من امعن في الاتجاه الذي اتجه
اليه الادب في سورية ولبنان في تلك الفترات .. انه اتجه
اتجاهات متباينة .. فهو في سورية - ادب عربي صميم في
روحه ومادته .. فدباء دمشق اكثر ادباء العرب حرصاً

على الاتصال بالماضي وبالادب العربي القديم .. نرى ذلك في الاسلوب وفي الاتجاه .. ولا عجب فدمشق احدى المدن التاريخية الكبرى التي تربطها بالتاريخ الاسلامي روابط وثيقة - حريصة على هذه الروابط وعلى بعث ذياتك الماضي .. وليس كالأدب اداة لوصل هذه الروابط - دمشق التي حملت ميراث العرب في سالفات الايام تريد في هذا العصر ان تحتفظ بهذا الميراث وان تعمل على صقله نقيماً ، وعلى بعثه قوياً .. وشعراء دمشق كأدبائها سواء في هذه النزعة الصحيحة .. فنحن حين نقرأ قطعة من الشعر لمحمد البزم نحس كأننا نسمع اصداً شاعر جاهلي .. وقد نسمع هذه النفحات الاموية احياناً في شعر خليل مردم بك الذي يريق على قصائده بعض صور هذا العصر وأوانه .. ولا

اتوسع في ايراد الامثلة بل اريد ان اقول ان ادباء الشام
ذوو نزعة خاصة للقديم ولبعث الادب القومي وحبهم في
ذلك اننا مازلنا في هذا الوضع السياسي المضطرب وما زال
الاجني يسيطر على مقدراتنا السياسية. ويلاحظ القراء اننا
تحدث عن الحركة الفكرية في سورية في الفترات التي
مرّت بين الحربين وفي عهد اسود كانت تخضع فيه سورية
للحكم الاجني . ازاء هذا الوضع كان الادباء يرون انه ،
مادمننا كذلك ، فلا مندوحة لنا من التعلق بالماضي وبعث
ميراثنا والحفاظ على ادبنا القديم .. اما هذا الخيال الممزوج
بالانوثة الذي يفسد اذواق النشء ويفرقنا عن غاياتنا المثلى
فنحن في غنى عنه .. وقد اشار الى هذه الناحية اديب دمشق
وشاعرها الكبير الاستاذ شفيق جبري بقوله :

« اننا معاشر اهل الشام نفضل الشعر الذي نرى عليه آثار القومية وآثار الوطنية ، لأننا في غلاب ونضال .. اننا نستخدم هذا الشعر حتى يقوي فينا هذا الغلاب وهذا النضال .. وما على الشعر ان تظهر عليه آثار البيئة وآثار العصر .. ما عليه ان يقبع في افق ضيق حيناً من الاحيان فاذا ظمأت النفوس الى حرية تفكيرها وحرية شعورها ، اذا استطاعت ان تدفع عنها هؤلاء الذين بسطوا عليها ظلمهم على أساليب شتى واسماء مختلفة ، تارة في اسلوب الارشاد ، وتارة على اسلوب التهذيب ، وحيناً باسم التقاليد - اذا اطمانت النفوس الى حرية حياتها - فليخرج الشعر يوماً من افقه الضيق - افق القومية وافق الوطنية ليحلق في السماء التي يريدتها .. اما نحن الآن في دمشق

فلا يرضينا الا النعمة الوطنية في الشعر .. قد نكون على حق وقد نكون على باطل .. هذا هو الامر الواقع ..

وكان الاستاذ جبري قد لفظ كلمته الحاسمة في هذا الجدل الذي ثار بين الادباء .. هل نوجه ادبنا اتجاه قومياً ام انسانيًا؟ وهكذا نرى ان ادباء دمشق لم تبهرهم هذه الالوان الجديدة في الادب ولا اصداؤها المتنافرة بل سلكوا هذه الطريق التي تربطهم بالادب العربي القديم اوثق رباط.

وهكذا ، فقد افترق الادباء الكلاسيكيون ، وعلى رأسهم اسرة المجمع العلمي العربي ، تحت هذه البواعث ، عن اتجاهات انصار الادب الجديد وجماعة التجديد في مصر .. وظل الشباب ، في سورية ، مأخوذين بالصيحات الجديدة دون ان تصرفهم هذه الصيحات عن الاصغاء الى

الايقاع القديم الذي يتخطى العصور حاملا أعراف بني
امية ومطارف بني العباس .

اما في لبنان فالأدب يتجه غير هذا الاتجاه .. خضع
الى عاملين قويين لهما اثرهما غير المنكور في تطوره .. فطبيعة
الجبيل من جهة ، وهذا الأدب الرومانطقي الذي قرأوه في
مدارس الارساليات ؛ هذان العاملان قد عملا عملهما في
ادباء لبنان .

يصف سعيد عقل احد شعراء الشباب اللبنانيين
طبيعة لبنان بصدد تساؤله عن نشأة المثولوجية
بقوله :

« اذا اتفق لشعب ان وجد في بلاد ذات طبيعة جميلة
ومختلفة - بلاد تغصّ بالجمال المختلفة الالوان .. هنا الاخضر

.. وهناك البنفسجي، فالادكن، فالاحمر، فالابيض . بلاد
تهدر فيها الانهار وتموت على اقدمها الخلجان ، يحومر
شفقها كالخود .. وتزرورق سماؤها كالعيون ، يصخب
شتاؤها بالغضب ، ويموج ربيعها كحلي العروس .. اخذ
هذا الشعب يرغ انظاره واحساسه على الجمالات فيحسها
ويحسها زيادة لاختلافها .. يعجب بها ، يحبها ، يكرمها ،
يقدمها ، واخيراً يؤلفها .. فاذا البحر آله ، والنهر حورية ،
والغابة جنينه .. والسما آلهة ، والصدى خيلانه ، والاسماك
بنات بحر وبكلمة اذا الميثولوجيا عند هذا الشعب» .

ومع كل هذه الطبيعة المؤاتية ، ومع ان لبنان اقرب
الى الاداب الغربية من أي قطر شرقي آخر .. ومع ان
المذاهب الادبية في فرنسا مثلاً قد تطورت تطوراً غريباً

بعد الحرب - مع كل ذلك ظل "الأدب اللبناني في هذه الفترة التي اعقبت الحرب الكبرى بعيداً عن هذه التطورات. فهو هو ، قصيدة وخطاب يتليان في هذه المناسبات المتتابعة ، بعيد عن الابداع ، وقفت آفاقه عند هذه الحدود الضيقة التي تصله بأدب قبل الحرب إلا بفروق ضئيلة .. وكان لبنان اكتفى بادبائه وشعرائه الذين ارسلهم الى مصر والى المهجر في اواخر القرن التاسع عشر ، واكتفى بهذا المجد الذي ضفرفه على هامته اليازجيون والبستانيون والشميل والمطران وصروف وزيدان .. وما للادباء يتعبون ؛ لقد انتج الاوائل وتر كوا لنا هذا المجد فلنكتف به .. ولولا هذه الكتب التي نشرها الريحاني وجبران ونعيمة ، وسلسلة من الكتب التي تحمل الطابع المدرسي ، وبعض انبثاقات

شعورية، وقطع من الشعر المنشور يمتّ الى ادب جبران
ويقلده تقليداً ممسوخاً - لولا هذه الالوان لخللا لبنان من
أي أثر فني يذكر سواءً في الشعر او في النثر او في اية
ناحية من نواحي التفكير العالمي .

☆☆☆

هذا تلخيص موجز للاتجاهات الادبية في سورية
ولبنان بعد الحرب الكبرى : سير وئيد في آفاق حائرة،
التفات الى الماضي، وقفات حذرة بين الحاضر والمستقبل ،
اقرب الى التقليد منه الى الابداع، وما زال بين هذه العوامل
المتباينة الى ان شعرنا في السنوات التي تلت سنة ١٩٣٠ مثلاً
اننا ازاء اتجاهات في الادب تختلف كل الاختلاف عن
اتجاهاته السابقة .. شعرنا انما ازاء جيل جديد من الشباب

اليقظ المثقف ، يفهم الادب بمقاييسه الصحيحة ، ينتج في الشعر ، وينتج في القصة .. في الواقع ، انه لم ينتج هذا الانتاج القوي الذي نستطيع ان نباهي به الاداب الحية باطمئنان ولكنه قد تحرر من المبالغات والشعوزات .. وثار على البيان والبديع ، واخذ يقترب من الحياة والجمال .. ولم يعد هم الشعاعر محاكاة المتنبي او البحراني او ابن الفارض او البهازيير بل همه ان يصور خبايا نفسه ونزعات حسه ، واصبح الشعر ، بعد ان كان ضيق الافاق في هذه الشؤون التافهة - اصبح غيره قبل تلك الفترات .. اصبح عندنا شعراء من الشباب ينزعون نزعات سامية ويقتربون من الاداب الحية ، يمتاز شعرهم بصفاء الديباجة وموسيقية اللفظ .. ووحدرة القصيدة ، يضاف الى كل ذلك روعة الخيال وجمال الصورة

عمق الفكرة .. يصور عواطفهم ويصور جهنم ويصور
 مثلهم العليا ، ويصور احيانا هذه الاحداث التي تناب ووطنهم
 بغير الحماس الاجوف او الشعور الحار المصطنع ..
 وهذه الفئة ، وهي وليدة هذا التطور ، قد تأثرت الى
 حد كبير بالاداب الغربية وبالحياة الاوربية وبهذه المقاييس
 الادبية التي رسمها زعماء التجديد .. ولا نعلم اذا كان هذا
 الرهط من شعراء الشباب سيقف عنده هذا الحد من الابداع
 في القصيد ام انه سيتعداه الى رسم تطورات الحياة بشعر
 يبقى على الزمن ، وبقصص تصور هذه المشا كل الانسانية
 بكافة انشاقاتها ..

وبادرة ثانية نستطيع ان نشير اليها باعجاب وهي
 « القصة » لقد حاولها الشباب بجرأة ولباقة ورأوا ان يحذوا

حذو كبراء ادباء القصة او الاقصوصة في الاداب الغربية-
 حذو ديستفويسكي وتورغنيف وزولا وغي دوماپاسان
 ومكسيم غوركي، وان يصوروا المحيط والبيئة، وان يرسموا
 اخلاق الناس وطباعهم وما تقاسيه البشرية من بؤس وشقاء
 وان يسبروا الى هذا، غور النفس البشرية، فصدرت
 طائفة من الاقاصيص تمتاز ببعدها عن المبالغات والتهويل
 وترسم هذه الصور الانسانية التي تطفو على وجه الحياة
 بنزعة فنية صحيحة وشعور حي .

وثمة ألوان في ادب المقالات التي تعرض الى المشا كل
 الانسانية والاجتماعية ومحاضرات تمتاز بدقة الدرس وبحث
 ادبنا القديم بحثًا يقوم على تركيز يتلاقى مع الاداب العالمية
 وغير ذلك من الانبثاقات الفكرية التي توجهنا وجهات

جديدة . وكان تلك السنوات هي الحد الفاصل بين ادب
البيان والبديع الذي يقوم على البهجة والشعوزات وبين
الادب الحي الذي يستمد قوته من صميم الحياة .. وهذه
نتيجة حتمية لتطور حياتنا بعد الحرب الكبرى .. واتصالنا
هذا الاتصال الوثيق بالغرب .. وهذا بدء انتعاش
ادبنا .. ولا يهولن هذا التخريج احدًا من انصار القديم
او من ادباء البديع « فالأدب العربي في كل عصوره
القديمة تأثر بالفعل بالحضارات المختلفة ، وجرى في شرايينه
الدم الفارسي والهندي والرومي .. وهذا ما التف اليه الشباب
الذين يعملون على السير بنهضة الادب في الطريق الذي
احتطته الامم الحية - خلق اداب تقوم على الفكرة قبل ان
تقوم على الصياغة ، وعلى الانتاج القوي لاعلى الشعوذة

وفهم رسالة الادب على انها رسالة الحياة ورسالة الجمال ..
والاثار الجديدة التي اخذت تقذفها المطابع لابناء الجيل
الجديد، ولاساتذة الجامعة السورية .. وبعض المفكرين
من الادباء - رغم انها لا تزال في اغراض محدودة - تتسجم
وهذه الاتجاهات، وهذا ما يجعل لرسالة الادب في سورية
هذه القيمة التي نرجو ان تتكامل وان يكون لها هذا اللون
الانساني الذي يذنيها من الأدب الحية ويضفي عليها
سمات الخلود.

١٩٣٨



أثر الكتاب الاحرار في يقظة العالم العربي

يلعب الفكر الحر في تاريخ الانقلابات والثورات
ا كبر دور .

والمفكرون الاحرار من الكتاب والادباء هم الذين
يسبقون عصرهم دائماً ، فيرسمون لجيلهم وللجيال المقبلة
الخطط والمناهج والاهداف البعيدة المدى ، ولبلوغ اهدافهم

يشيرون الافراد ويحركون الجماهير ، وما يزالون في نضالهم
 الحر العنيف وكفاحهم الدامي المستمر الى ان يحين حينهم ،
 فتتم شفاهم في ساعاتهم الاخيرة ، بعض كلمات متقطعة
 تحمل في اطواء حروفها خلاصة جهادهم الطويل في النضال
 عن حرية الفكر والقضاء على الطغيان وكانهم يقولون
 لمن بعدهم :

لقد بدأنا جهادنا بعد ان آمننا بالفكرة التي دعونا اليها
 فاضطهدنا وتعذبنا ، سجننا ونفينا ، ولكننا لم نياس ، فواصلوا
 السير ، واياكم ووهن العزيمة . فترن هذه الكلمات رنينها
 الداوي في ضمير المجتمع ، وما هي ساعات ، واحياناً سنوات ،
 حتى تنفذ الى قلب مفكرين آخرين غيرهم يضطلعون بحمل
 الرسالة الكبرى ليتموا رسالة اندادهم . وهكذا ، من حقبة الى

حقبة ، ومن جيل الى جيل ، الى ان تبلغ الامة رسالتها ،
وتتحقق ، في ميدان التحرير ، اهدافها ومثلها وغاياتها .
ولا يهم الرجل الذي يقود امته الى مواكب النور
أتحققت رسالته في حياته ام لم تتحقق ، فحسبه انه ادى واجبه
باطمئنان ، ووضع بذور الثورة في قلب المجتمع الذي يعيش
في طواياه . وقد ترك للزمن ان يعمل عمله العجيب في إنبات
هذه البنود وانماء تلك الاغراس .

هذا هو دور المفكرين الاحرار في نضال الامم
الفتية الناشئة :

ولكل امة قادتها ومفكروها ، ولها في مراحل الجهاد
شهادؤها وضحاياها .

وكان لا بد للامة العربية ، بعد رقادها الطويل ، من

ان تنهض ، وان تسير قدماً في طريق الحياة ، واذا كان تاريخها الحديث قد خلا او كاد من قائد حكيم او رجل قد اضطلع وحده باعباء نهضتها الكبرى فهو لم يخل من الشهداء والضحايا .. وكان لغير واحد من المفكرين هذه الصيحات التي انبعثت تهز مشاعر الامة الوسنانة في كل قطر عربي ، وهي تهيب بهم . ان يعملوا الاعاجيب لاستعادة الماضي الذهبي ، والسير مع الامة الحية في موكب النور .

انبعثت هذه الصيحات في منتصف القرن التاسع عشر حيث بدأت طلائع النهضة ، اما قبيل هذه الفترة فقد كان الشرق العربي في شبه غيبوبة ، بل ظل عدة قرون تتأرجح شخصية العرب في كنف الرجل المريض ، ولم يكن للحياة العقلية اي اثر يذكر في تاريخهم ، وكانت اشبه بالحياة

العقلية في اوربا في القرون الوسطى.. ولولا ارتباطهم بلغتهم - وهي احدي مقومات النهوض - لكانت طلائع هذه النهضة قد تأخرت جيلاً او جيلين.. ولكن من حسن حظ العرب ان عاملاً خفياً كان يوقظهم كلما ركنوا الى غيبوبة اهل الكهف، أريد بهذا العامل الخفي - لغة القرآن - فقد كانت الحارس الأمين الذي أنقذهم من التدهور والانحدار الأبدي، واستطاعت العربية - هذه اللغة الجميلة - ان تفرض ذاتها حتى على السيطرة العثمانية - على الدولة وكبار كتابها وفضاحل علمائها. ورأينا اكثر من ألفي كتاب عربي تدبج باقلام كتّاب اترك في اغراض دينية وتاريخية وما يمت الى ثقافة تلك العصور بصلة (١)

(١) للكاتب التركي محمد طاهر البروسهلى، كتاب اسمه

«عثمانلي مؤلفاري» المع فيه الى المؤلفين الاترك الذين اشتغلوا بالتأليف

وهكذا فقد استطاعت عبر القرون ، ورغم الاسقام التي احاطت بها ، ان تعيش وان تتخطى الفجوات والمهالك ، الى ان اطلت بهزاتها المومجعة ورونقها الكئيب على القرن التاسع عشر ، فرحب بها المحبون ، ورعاها المفكرون ، - وجميعهم - على قلوبهم - من الاطباء الحاذقين ، واتخذوها ذريعة لبعث عربي كبير ، فصدرت النشرات والصحف ، وكتبت الرسائل والكتب ، وكانت العناية باللغة مظهر آمن مظاهر البعث العربي ووضع اسس ثورة فكرية قام بها المعنيون بالتحريك القومي في كل صقع عربي . فمنذ نصف قرن ، والامة العربية ، تعمل ، وتحاول ما استطاعت ، ان تنفض عنها اثقال القرون ، ولعب الادب ، في هذه الفترة ، دوره الخطير في منذ ظهور الدولة العثمانية الى يومنا هذا ، وقد ذكر أكثر من ألفي كتاب باللغة العربية مؤلفة بقلم كتاب اترك .

التمهيد للبعث السياسي والتطور الاجتماعي على ضوء ما بلغته
 الامم الاوربية من رقي ، وانبعثت صيحات المفكرين الاحرار
 من الساسة والكتّاب والشعراء ، تدوي في الارحاء العربية
 من المحيط الاطلسي الى الخليج الفارسي حتى خلقت هذه
 اليقظة التي تبشر ببعث عربي بليغ الاهداف والمرامي ،
 بليغ المقاصد والنتائج ..

وعصر النهضة العربية الذي نحيا في صميمه الآن - هو
 فترة الانتقال من العهد العثماني الى العهد العربي - والتشابه
 جد شديد بين فجر النهضة العربية وفجر النهضة الاوروبية
 « فعصر النهضة الاوروبية هو فترة الانتقال من العصور
 الوسطى الى العصر الحديث ، فقيه تبدلت الحياة السياسية
 وتغيرت احوال الناس الاجتماعية ، وآراؤهم الدينية والادبية

والفنية ، وهب الناس من رقادهم يطلبون العلم ، وأخذوا
ينظرون الى الحياة نظرة جديدة تختلف كل الاختلاف
عن نظرهم السابقة لها .

والحياة في البلاد العربية، قبيل الحرب الكبرى ،
تشابه من بعض الوجوه الحالة التي كانت عليها اوروبا ،
قبيل فترة الانتقال الى عهد الرينسانس، ولكن وسائل
هذا العصر العجيب في بسط المعرفة أقوى بكثير مما
كانت عليه في الماضي، حتى لتبدو المقايضة لوناً من العبت،
بل من العبت ان نكر ما افادته الامة العربية من خيرات
هذا العصر، فقد افادت الشيء الكثير، وكان لاتصال
الشرق بالغرب أثره القوي في توجيه الامة العربية هذا
التوجيه القوي الذي بدّل الكثير من اوضاع حياتها- حياة

الفرد والمجتمع وحياة الامة والحكومة .. وهكذا فقد
 انبلج فجر قرن العشرين عن يقظة فكرية حرة هي ثمة
 النهضة في اواخر القرن التاسع عشر .
 كانت مهمة الكتاب في اواخر القرن التاسع عشر ان
 يوقظوا الوسنانين ويرفعوا العصائب عن العيون ، أما
 مهمتهم في القرن العشرين، وقد استيقظ النائمون وأخذوا
 يتبينون معالم الطريق - فهي بسط المعرفة في كل أرض
 عربية وتحرير الفكر من الاصفاد .

استهدف الكتاب والمفكرون غاية كبرى .. وعملوا
 ما وسعهم على تحقيقها .. فما هي هذه الغاية ؟ هي خلق
 كيان قوي - كيان مستقل حر ، يتسم بالطابع العصري
 في جميع الاتجاهات التي تتجه اليه الامم .. فعملت السياسة

مع الادب في هذا المضمار، وكان للنضال القومي، وللنضال
الفكري اثرهما المشترك في حياتنا العقلية التي اخذت
تتحرر من الكثير مما يعوق سيرها السريع في شتى
الميادين .

وقد يكون ، بين هذه الخطوات التي خطتها الامة
العربية والاشواط التي بلغتها الامم الحية آماذ طويلة ،
والواقع ، انها آماذ طويلة جداً .. فالامة العربية لا تزال
في بدء السير ، وفي الشوط الاول من وثبتها الكبرى ،
ولكن الشيء الراهن هو ان يقظة عجيبة سرت في جسم
الامة العربية سريان الكهرباء .. أيكون لطفولتها في
عصر النهضة من القوة ما كان لرقدها الطويلة من الانكماش
والضعف في عصور التفكك والانحطاط ؟

اما الذين في قلوبهم مرض فيهبزون رأسهم علامة
السخيرية ويهزأون .

وأما المؤمنون فيصيحون من الاعماق ان فجر الامة
العربية قد انبثق وان نوره قد لاح في الآفاق !
فلمن يعود الفضل في هذا البعث ؟

للكتّاب ، وأكاد أقول للكتّاب الاحرار وخدمهم .
فهم الذين وضعوا بذور الثورة الكبرى - ثورة
التحرير الفكري ، في كافة حياتنا العقلية ، فمن صيحات
لتنقية جوهر الدين من جمود المحافظين الذين يُنكرون
ناموس التطور في الحياة الاجتماعية ، الى صيحات لتحرير
المرأة من عبودية الجهل ، الى غيرها لتحرير الادب من
ميوعة التقعر اللفظي وسماجة المبالغات ، الى صيحات

داوية في السياسة وفي القومية - كان لجميع هذه العوامل
اثرها في تطورنا السياسي والفكري معاً .

فرسالة محمد عبده مثلاً في سبيل قدسية الدين
واخراجه من قيود الجمود . ورسالة الكواكبي في انشاء
وطن عربي حر وتحطيم الطبائع التي عاشت عصوراً طويلة
في دياميس الاستعباد . ورسالة قاسم أمين في سبيل تعليم
المرأة والنهوض بها لتساهم مع الرجل في بناء الكيان
الاجتماعي ، ورسالة الشميل في إشاعة روح العلم والقضاء
على المشعوذين الذين لا هم لهم الا الرجوع بالامة التقهقري ،
ورسالة الريحاني في بذر بذور الحرية والقضاء على الطائفية .
والزهاوي في الدفاع عن حيوية الفكر ، والمعاصرون من
أحرار الكتاب الاحياء الذين ما فتئوا يعملون في جميع

الميادين ، وما تخلل تلك الفترات من ثورات الاستقلال
والحرية التي قام بها المجاهدون في سبيل خلق كيان وطن
عربي حر - ان جميع هذه الصيحات - وهي البذور الاولى
التي زرعتها المفكرون الاحرار في الارض العربية - هي
التي انبتت هذه اليقظة المباركة التي تقوم على اصولها
نهضة الامة العربية - هذه النهضة التي كانت هواجس
في ضمير الكتاب فأصبحت اليوم حقيقة راهنة في ضمير
المجتمع ، وكم لاقت هذه الهواجس من عنت وارهاق ،
وكم تحمل اصحابها من ظلم واضطهاد ، ومع ذلك فقد
تخطى الفكر الحر جميع هذه العوائق ، واستطاع أن يقود
الامة العربية ، رغم ما اعترضها من عقبات ، الى طريق المجد .
فالرأفة وما بلغته من مكانة رفيعة في المجتمع ، والمجتمع وما بلغه

من تطور في الحياة، والحكومة وما تحاوله من اعمال فذة
في خلق كيان عربي حر، وما نلمسه من تطور في جميع
ميادين الحياة العقلية - كل ذلك وليد هذه الصيحات الحرة
التي ابعثت من اعماق الكتاب الاحرار الذين رسموا
الخطوط الاولى للبعث العربي الكبير والوصول بالامة
الى اهدافها العليا وغاياتها المثلى .

مع ابي العلاء في سجنه

«وادخلت علي الشيخ في حجرة واسعة ، بعيدة الارحاء ،
قد جلس هو في صدرها علي حصيد لعله ان يكون اقرب
الى البلى منه الى الجدة وبين يديه نقر يكتبون ، وفي
الحجرة قوم آخرون كثيرون . يسمعون ويعجبون ، ولكنهم
لا يقيدون ما يسمعون
وكان صوت الشيخ شاحباً حزيناً قد القت عليه مسحة من
كآبة ولكنه كان في الوقت نفسه ثابتاً متمثلاً يمازج حزنه بشيء
من الرضا والامن وشيء آخر لا يكاد يحس كأنه يمثل
غبطة هادئة وابتهاجا متواضعاً بما يتيح للشيخ من فوز .
طه حسين

أيهما احب الى القارئ الأديب ان يكرن مع ابي
العلاء في سجنه ام مع طه حسين في مصيفه ؟ . أفني معرفة

النعمان ام في ضواحي باريس ، لاشك ان القارىء يؤثر باريس
على المعرة : اذ ما عساه واجد في بلدة ابي العلاء غير هذه
الذكري التي ترجع به الفسنة الى الوراء ليلقى هذه الدروب
الضيقة الملتوية - في تلك القرية الباهتة التي لا يميزها على
الكثير من المدن الصغرى او قرأها الكبرى سوى انها بلد
الشاعر الفيلسوف الذي عاش في كنفها واعتكف في بيته
خمسين عاماً لا ينعم بمباهج الحياة ولذا ذاتها، والذي نظر الى الكون
بمنظار اسود وفرض على الناس فلسفته القائمة التي تجعلك
تهزأ بالحياة دون ان يعصمك من الموت علمك او جهلك، تقاك
او ضلالك، رشذك او هواك، ايمانك او شكك، فلسفتك او
استسلامك ! لاشك ان القارىء يؤثر باريس وضواحيها على
المعرة وسجن ابي العلاء فيها . اذن، فلننزل عند رغبة القارىء

ولنسافر مع الدكتور طه الى باريس . ولنقض معه عطلته الصيفية التي يقضيها في الجبال والمرتفعات حيث يخلو الى نفسه ساعات من النهار ، يروّض فكره بالحديث عن شخصية ادبية او يبلي هذه الخواطر التي تثيرها في نفسه تلاوة كتاب من الكتب ، بعيداً عن العمل الجامعي وعن مواضع الحياة وشواغلها في مصر . حيث انتجت له رحلاته الصيفية هذه أكثر من كتاب واحد ، فكتابه « في الصيف » وكتابه « من بعيد » هما ثمرة رحلاته الى باريس ، كما ان كتابيه الاخيرين « مع المتني » و « مستقبل الثقافة في مصر » هما ثمرة هذه الرحلات ، وها هو يطالعنا هذا العام بكتاب جديد عن ابي العلا . يختلف كل الاختلاف عن كتابه السابق الذي كتبه قبل ربع قرن حيث افتح حياته الادبية بتلك الدراسة التي كانت

الاولى من نوعها بالنسبة للدراسات الادبية الجديدة . . وقد
 مرّت ايام تمنى خلالها ان يعود الى ابي العلاء ليدرس بعض
 نواحي ادبه ، وهاهو يعود اليه بعد فترة طويلة يدرس هذه
 الخصاص التي تميز ادبه فيعرض الى ارأه ويحلل نزاعه ،
 والدكتور طه حسين من ، اقدر ادبائنا المعاصرين على ولوج
 هذه الميادين التي ولجها ابو العلاء وانفذهم الى اعماق نفسه وتامس
 ما كان يحسه ويشعر به في جوه الفلسفي المعتم ، نعم ، فلنسا فر
 مع طه حسين ولنقض مع ابي العلاء ساعات في سجنه ، فليس
 سجن الفلاسفة بالسجن الذي تضيق به النفس ، وكثيراً ما ارتاد
 الادباء جحيم المعري وجحيم دانتي فرأوا فيها هذه العوالم
 السحرية التي أيقظت في نفوسهم احاسيس اسمى من هذه
 الاحاسيس التي يوقظها وصف الجنان في نفوس المؤمنين . .

اذن ، لاخوف من ان نلج مع طه حنين سجن ابي العلاء . .
فهو سيرفق بنا اذا ضقنا بوحشة السجن ، وسيسرّي عنا بحديثه
العذب ، . وها نحن نقطع البحر الابيض معه فاذا به يحدثنا
في الطريق حديثاً طلياً عن الادب ، عن النفس ، عن الفن ،
وعن جميع هذه العوالم الكبرى أو قل حديث بول فاليري عن
صديقه الرسام « ديجاس » يصور فيها نفسيته أو نفسية اي
فنان او كاتب يلتمس المثل العليا في فنه ، لا تهمة الشهرة
الكاذبة او رضا الناس عنه ، لا يهمله الا رضاه هو عن فنه ،
كالؤمن الذي لا يحفل الا بحكم ربه ، لقد رأى طه حسين في
هذه الصفات المشرقة التي صور فيها بول فاليري صديقه الرسام
ديجاس صورة من ابي العلاء ! « فشدّة الرجل على نفسه الى
اقصى غايات الشدة ، وشك الرجل في مقدرته الى ابعد آماذ

الشك ، وارتياح الرجل باحكام الناس في امور الفن ، وزهد
الرجل في الشهرة وبعد الصيت ، وفي الثراء وسعة اليد ، وانصرافه
عن الحمد الكاذب والثناء الرخيص ، وتأجيله لذة الظفر بالفوز
وخلقه المصاعب لنفسه ، وبغضه للطرق القصار والابواب
الواسعة ، واثارة الطرق الطوال او الأبواب الضيقة - كل هذه
الخصال التي يحدثنا بها بول فاليري عن صديقه واثيره ديجاس
قد حدثنا به القرءن والاجيال عن ابي العلاء ، الا ان الاول
كان مصوراً رساماً والآخر كان شاعراً حكيماً . (١)

لقد كانت تجول في نفس طه حسين نفس الخواطر التي
اثبتها بول فاليري ، ومن عجيب المصادفات ان يصحب معه
الى باريس كتاباً لفاليري عن ديجاس في الوقت الذي يصحب

معه اللزوميات ، والفصول والغايات لأبي العلاء ، وان
تتلاقى آراء طه الناقد ، وفاليري الشاعر ، وديجاس الرسام ،
وابو العلاء الفيلسوف في معنى واحد :

في حكم المصادفات واثرها في النفس . . وهكذا يمضي
الدكتور طه في احاديثه العذبة عن السبب الحقيقي لاصطحابه
كتب ابي العلاء ، وعن آراء ماسينيون في صلة ابي العلاء
بالاسماعيلية ، ثم يدير حواراً بينه وبين المعري عن الرضا عن
الحياة والسخط عليها ، وعن الابتسام لها والضيق بها
فيصارع ابا العلاء بان تشاؤمه لا مصدر له في حقيقة الامر الا
العجز عن تذوق الحياة والقصور عن الشعور بما يمكن ان
يكون فيها من جمال وبهجة ، ومن نعيم ولذة .

ثم يعرض الى معنى التشاؤم والتفاؤل في رسم صوراً من

نفسه ونفسية ابي العلاء ويرتفع الى القمة في تصوير هذه
الفروق بين المكفوفين والمبصرين في تلمس جمال الحياة
ومباهج الطبيعة ، ولا أبيع لنفسي تلخيص هذه الصفحات
بل اهيّب بالقارئ ان يرجع اليها ليقرأها وليعيد تلاوتها
اكثر من مرة لانها قطعة سامية من الادب النفساني
الرفيع تصور ادق ما يحسه طه حسين ، وكأنه يعلن
في هذه الصفحات ، عن فرط حساسيته المرهفة التي تلمس
الامور وتتصورها اكثر مما يتصورها المبصرون انفسهم
.. وهكذا ، ينتقل بالقارئ من صفحة الى صفحة ، ومن
فكرة الى فكرة حتى يضيق هو بفلسفة ابي العلاء القائمة
فيلتفت الى زوجه والى ابيه والى صديقه الذين يعمون
بجمال الاراضي الايطالية ان ينقذوه من هذه الحياة التي

يحياها في القرن الرابع للهجرة او في القرن العاشر للمسيح
 بينما هم يحيون في القرن العشرين! ولكن انى له ذلك؟
 فهو لا يكاد يفلت من سجن ابي العلاء محاولا ان ينعم
 بهذه الطبيعة الحلوة بين الجبال الشاهقة والاشجار الباسقة
 والارجاء المعطرة. نعم، انه لا يكاد يفلت من آراء ابي
 العلاء القائمة الى آيات أندره جيد الباسمة في ظلال الطبيعة
 المخضلة، حتى يصرخ به ابو العلاء هذه الصرخة التي يشيع
 في اصداؤها الزهد الشاحب المظلم فيرتعد ويتساءل ايها
 الحق؟ امسخت ابي العلاء وتشاؤمه، أم رضى طه حسين
 وتفاؤله؟.

وما اظني وقد بلغنا ارض فرنسا اننا سنبتقي في
 باريس نستمتع بجملها وهدوؤها كما يريد الدكتور طه

حسين؟ وقد تسألني لماذا؟ أتكون المعرة اجمل من باريس،
 أم ان تشاؤم المعري اغلب من تفاؤل طه حسين؟ لقد
 حاول الدكتور طه، في الاراضي الايطالية، ان يزِيل
 نزعة التشاؤم من قلب الفيلسوف الضرير. ولكن المعري
 معتصم في سجنه، يلقي دروسه على تلاميذه. وكأني به
 يخاطب الدكتور طه وقد ازور جانبه بقوله: لا مندوحة
 لهذا الصديق اذا كان يحبني ويريد ان يتعرف الى آرائي
 من ان يترك باريس الى المعرة: ففي هذه القرية يعرف
 كيف املت الزوميات، وكيف فاض قلبي بالفصول
 والغايات.

وقد نزل طه حسين عند رأي صديقه، فيها هو ذا
 يترك باريس وضواحيها ويعود الى هذه القرية المتواضعة

يستمتع اليه ويصاحبه فترة من الزمن يحدثنا احاديث جديدة
عن شيخ المعرفة في طائفة من آرائه وأدبه ، في سجنه الذي
ارتضاه لنفسه خمسين عاما كاملا ، في مصير النفس ، في متاعب
الحياة ، في السعادة والشقاء ، في اللذة والالم ، في الموت
والبعث ، في الشك والايمان ، في الديانات ، في النبوات ، في
الايمان بالعقل - هذا العقل المفكر الكبير الذي فتح امامه
شقى العضلات الفلسفية العميقة التي ظل يعالجها نصف قرن
كامل دون ان يصل الى اغوارها او الى هذه النتيجة التي
يطمأن اليها قلبه . وهنا يعود طه حسين ليرسم من جديد
خطوطا جلية من حياة ابي العلاء الفلسفية ، ليرسم اثر هذا
السجن الطبيعي والسجن الفسيولوجي في نفسه أي يعود
ليتحدث عن خنته مجدداً وعن اثرها في نزعاته وميوله

وكيف تترآى له عبقرية ابي العلاء من نوع فذ تختلف
عن الكثير من العبقریات، وعن عبقریات المكفوفین
بصورة خاصة: «ذكاء ممتاز وملكات متفوقة وقدرة على

الاجادة والبراعة فيما لا يحميد الناس فيه ولا يبرعون» (١)
ومرد ذلك آفته التي كشفت له سجنه الفلسفي وإمتزجت
به حتى اصبحت سجناً من داخل سجن ثم انشأت له سجناً
ثالثاً . . . وهو بيته - الذي لزمه نصف قرن - في المعرة . .
يقول طه حسين : « وليس المهم انه اقام في بيته نصف
قرن لا يتركه وانما المهم انه اقام في هذا البيت على نحو
خاص لم يتعود الناس او لم يتعود اكثر الناس ان يقيموا
عليه في البيوت، وحسبك انه كان فذاً في هذا بين المسامین

جميعاً على اختلاف البيئات والمعسوز فأبو العلاء لم يكتف
 بالسجن الذي فرضته الطبيعة عليه فرضاً حين ا فقدته
 ناظره كما يقول ، وإنما فرض على نفسه سجين آخرين .
 احدهما ظاهر محس يراه الناس جميعاً ويشهدون ما يمكن
 ان يلقى سجنه من الحزن اللاذع والالم الممض وهو هذا
 البيت الذي اقام فيه ابو العلاء لا يريعه وفرض على نفسه
 لزومه مهما تكن الظروف وطلب الى اهل المعرة الا يخرجوه
 منه حتى يغير الزوم على المدينة ، والثاني سجن فلسفي تخيله
 كما يتخيل الشعراء ، واشتقه من حقائق الأشياء كما يفعل
 الفلاسفة (١)

أراني في الثلاثة من سجوني فلا تسأل عن الخبر النبئث

لفقدي ناظري ولزوم بيتي و كون النفس في الجسم الخيـث
 وبعد ان يطيل الكلام عن هذا السجن او عن
 سجنه الثلاثة يبدأ حديثاً آخر يكشف لنا فيه
 اثر هذه السجنون في أدب ابي العلاء فيسجل آراء جديدة
 من القيمة بمكان عظيم، وان اشير الى درسه بعض
 قصائده من الناحية الفلسفية او الناحية الفنية وما يتخلل
 ذلك من آراء له تلخص جماع الفلسفة العلائية ومذهبه في
 الحياة بل سأعرض الى هذه الناحية التي وقف عندها طويلا
 والتي لم يسبقه اديب الى تناولها او الاماع اليها وهي ان
 هذا السجن الذي ارتضاه قد جعله يروض نفسه بما يعينه
 على التفكير بدون انقطاع . . فما هي رياضته ؟ يقول طه
 حسين :

«واول ما اواجهك به من ذلك ، وانا اقدر انك ستلقاه
منكرآ له ثارآ عليه هو ان اللزوميات ليست نتيجة الفراغ
ولست نتيجة الجد والكد وانما نتيجة العبث واللهو» (١)
وقارى هذا القول قد يتهم طه حسين بالمداورة او بعدم
فهمه لاراء ابي العلاء ولكن اذا رجع للفصل
السابع من الكتاب وقرأه بامعان رأى كيف يدلل عميد
الادب العربي على وجهة نظره ويؤيد صحة رأيه .
ولا احب ان اخلصه ايضاً فقد يشوه التاخييص نظرية
من النظريات الجديدة في فن ابي العلاء ولا اعرف كيف
اهمل الكتاب المعارضون اطه حسن - وما اكثرهم - مناقشة
هذا الرأي ولم بحثوه بحثاً علمياً هادئاً مع ان المجال يتسع
للمناقشة فيه بالتطويل ، وما اظن ان ادبياً يُسر بأن تناقش

آراؤه وتصره في بوقته من النقد والتحليل كالدكتور طه حسين .

ثم نتقل من عرض الجوانب الفلسفية من حياة ابي العلاء الى الجوانب الادبية وقد يحس القارئ - اذ لم يكن اديباً - بعض الفطور حين يوغل طه حسين في دراسة بعض قصائد ابي العلاء من الناحية الفنية البحتة ولكنه لا يلبث ان يعيد له نشاطه حين يستأنف الحديث عن النواحي العقلية وعن المشا كل الاجتماعية التي احسها ابو العلاء فيعرض رأيه في الاشتراكية - لا اشتراكية كارل ماركس - بل هذه الاشتراكية التي استمدتها فيلسوفنا العربي من الحياة المادية والعقلية لعصره ، ويعرض الى الثورات التي اضطرب لها النظام الاجتماعي والسياسي ايام العباسيين ، ثم يعرض

الى مدى تصور ماسينيون لتأثر ابي العلاء بالاسماعيلية ،
ويشير الى انكار المعري لفريضة الحج والى غير ذلك من هذه
المشاكل الاجتماعية والفكرية التي واجهها ابو العلاء وعرض
لها في اللزوميات ، وبعدها يفرع من درس اللزوميات ويشرح
اجمل قصائده من الناحيتين : الفنية والفلسفية يقول لك رأيه
في شعر اللزوميات ورأيه انه من الاسراف ان نظن ان شعر
اللزوميات جيد كله من الناحية الفنية الخالصة لانه يعتقد
ان الجيد من شعر اللزوميات قليل يمكن ان يستخلص في
مجلد نحيف يجمع الى الجمال الفني خلاصه الفلسفة العلاءية كلها.
ثم ينتقل الى الفصول والغايات ، ودراسته عن هذا
الكتاب هي الاولى من نوعها لان جميع الادباء الذين عرضوا
لابي العلاء قد اهملوا الكتابة عن هذا الاثر او اقتصرت

كتابهم على ضياع أثر من انفس اثار ابي العلاء، وفي اعتقادي
انه لا بد لقارئ الفصول والغايات من تلاوة ما كتبه ظه
حسين عن هذا الكتاب ليتاح له ان يدرك النواحي الفنية
والتأملات الفلسفية التي ارادها المعري .

هل اراد معارضة القرآن في الفصول والغايات ؟

ماوجه المشابهة بين الزوميات والفصول والغايات ؟

ما رأي المعري في البعث ؟

اين تلتقي واين تختلف آراؤه مع آراء الابيقوريين ؟

لماذا أثر ابو العلاء الرمز واصطنع الالغاز في ادبه ؟

ماهى الناحية الانسانية في شخصية ابي العلاء ؟

كيف بدأت حياته الفلسفية ؟

هذه اسئلة تثير في نفس القارئ الشكوك حين يقرأ

هذا الكتاب؟ وقد اجاب عليها الدكتور طه باسألوه الساخر
 الأخاذ، وبروحه الادبية العميقة، وبعقليته العجيبة المشعة.
 والان قد يسأل القارئ ان نحن من الرحلة؟ افي ضواحي
 باريس مع طه حسين في مصيفه؟ ام في دروب المعرة الضيقة
 المعتمة نستمتع الى ابي العلاء في سجنه؟ ولست في حاجة
 لأن اجيب على هذا السؤال فحسي هذه الصفحات التي
 تصور ومضات ضئيلة من عقليتين جبارتين تتصارعان برفق
 وهدوء. وللقارئ ان يجيب نفسه، وفي ظني انه ان يتدي
 الى الجواب قبل الرجوع الى الكتاب وتلاوة فصوله بدقة
 وامعان. وقد تسألني عن رأيي في الكتاب فلا اتردد ان
 اقول انه ليس من اثنى ما ابدعه عقريه طه حسين فحسب
 بل من امتع ما كتب عن ابي العلاء ومن امتع الكتب
 الادبية التي اخرجته المطابع العربية في هذا العام

خبايل مطران

١٨٧١ - ١٩٤٩

. . في اليوم الثلاثين من شهر حزيران سنة ٩٤٩
نعت انباء القاهرة وفاة خليل مطران - الشاعر العظيم الذي
ظل نصف قرن كامل ونيب ينفح العربية بروائع الشعر
في شتى فنون الحياة . وقد تلقى الادباء والشعراء وكل من

عرفه او اتصل به او قرأ شعره ونثره - تلقوا نبأ وفاته بالأم
 والحسرة خلفت صوت الشعر الذي ارتفع عالياً في الكثير
 مما مرّ بهذا الشرق من احداث سياسية واجتماعية ، فقد
 كان شعره ، رحمه الله ، صورة صادقة لنزعات التطور في
 الشرق ، ولهذه الوثبات التحريرية والحركات القومية التي
 قاد تيارها الزعماء والساسة والمصلحون . ففي رثائه لمصطفى
 كامل مثلاً - اي قبل اربعين سنة . ذرف دموعه الصديق
 وأدّى حق الاخاء وحق الوطن فغمز من قناة الغاصب ودافع
 عن رسالة الاسلام وسفه اراء المعتصبين من مستعمري الغرب
 ووصف وطنية هذا الشاب المناضل الذي وقف وقفة الجبارة
 يناهض سياسة المحتلين ، وقل مثل هذا عن رثائه للاستاذ
 الامام الشيخ محمد عبده وقاسم امين وسعد زغلول وهدى
 شعراوي وغيرهم من الاعلام الذين كان لهم اثرهم في التحرير

الفكري والبعث السياسي . . . وهنا ، وفي كثير من المناسبات يبدو مطران اقوى في شعره « الموضوعي » منه في شعره « الذاتي » ولكن الواقع يقول ان شعره الموضوعي اكثر وفرة وأغزر من شعره الذاتي الذي يشرح فيه حالات النفس ونبضات القلب . نعم ، انه اكثر وأوفر ولكنه ليس اقوي وأطلى وأمتع . . . فكثيراً ما نقرأ له قطعة صغيرة لا تتجاوز اياتها العشرة فاذا بنا ازاء لوحة قنية تفوق بروعتها وجمالها واثرها في النفس الكثير من تلك القصيدة التي جاوزت اياتها المائة . ولا اتقص هنا شعره الموضوعي فبالرغم من انه صورة صادقة للأحداث السياسية والاجتماعية فلا يمكن ان نجرد مقاطعه من إهاب الشعاعية . ذلك لأن خليل مطران شاعر قبل ان يكون رجل سياسة او رجل كفاح وطني . . . ففي مجاراته تيارات السياسة وهذه الفورات القومية العارمة

لم يستطع في يوم ما ان يتخلى عن شاعريته .. ولهذا كان لشعره ، سواء في المناسبات القومية ؟ ام في استعراضه أحداث التاريخ ، ام استخلاصه العظات من احداثه - هذه الروعة التي تشعرها وانت تقرأ قطعة يرسم فيها هذه الخلجات التي تصور شعوره الذاتي ..

ومما لا شك فيه ان دراسات كثيرة ستكتب عن خليل مطران ، فأفقه أوسع من ان تستوعبه دراسة واحدة أو عدة دراسات لكاتب واحد ، ولا شك ان هذه الدراسات ستبدأ منذ الان ، اى بعد ان طواه القدر وحين تفرغ المطبعة من نشر ديوانه الكبير الذي يشتمل على عشرة اجزاء أو أكثر ونشر الكثير من اثاره في الادب والتاريخ والقصة . ومن المؤسف ان لا يكون في حوزتي وانا اكتب هذه

الكلمة عن الشاعر غير الجزء الاول من ديوانه المطبوع قبل نصف قرن ، وهو يؤلف جزءا ضئيلا من شعره في بدء شبابه . . اما شعره في فجر شبابه ، وفي نضج كهولته ، واكتمال شيخوخته فهو مبعثر في الصحف ، وبعضه بل اكثره لم ينشر قط . . وهيئات للكاتب ان يعثر على ما يروي ظمأه حين يتصدى لدراسة شعره ، وقد عانى صديقي المرحوم المستعرب الدكتور ادم الامرئين حين تصدّي لتأريخ مذهبه الشعري ، وكانت لديه كافة المستندات التي توفر له مجال البحث والدرس ولا سيما وقد كان على اتصال وثيق بمطران وبأصدقاء مطران ، وتعتبر دراسته أوفى دراسة كتبت عن مطران وإن كان بحمته عن شعره أقل من بحمته عن فنه وحياته . .

اخلىص من هذا الى ان كتابتي عن خليل مطران لن
تطمئن شعورى وقد كنت اودّ ان تكون لديّ كافة
آثاره لأبدأ بدراسة شاملة عن هذا الشاعر العظيم الذي
ترك للادب العربي ثروة ضخمة هي صورة واضحة لهذه
الفترة من نهاية القرن التاسع عشر الى منتصف القرن
العشرين . وفي كلامي عن مطران سأتناول بعض حالات
نفسية من شعره الذاتي ، وهي تصور لونا مـ من شعره
وحياته الشعورية في فجر الحياة ، وارجوان اعرض في مناسبة
ثانية ، وحين تتوفر لدي كافة دواوينه ، الى بعض شعره والى
الكثير من آثاره .

فقد كنا عصابة من الشباب نجتمع في بيت صديق ، وكنا
تذاكر الادب ، وننظم الشعر ، ونؤلف المقالات ،
ونخطب ونشترك في تمثيل الروايات ، اي كنا نقيم في كل
اسبوع «سوق عكاظ» على حد تعبير بعضنا لهذه الاجتماعات
وكان الصديق الذي نجتمع عنده من المؤمنين بشعر مطران
يستظهر اكثره ، وكان بعضنا او اكثرنا يفضل شوقي عليه
وكان صديقنا هذا يتلو علينا بعض مقاطع من شعر مطران
او بعض قصائده ، وكان يعتر بقصيدته «الجنين الشهيد» ،
وهي قصة رائعة تصور مأساة من مآسي الحياة .. ولكن
لم يكن لنا — واكثرنا في طراوة العمر ونزق الشباب — لم
يكن لنا هذا الصبر لاستيعاب روائع هذه القصيدة التي
تربو ابياتها على المثني بيت .. وكنت ممن يؤثر حافظاً

على الشاعرين .. ثم قرأت شعراً لمطران - قرأت قصيدته
 عن قلعة بعلبك - تلك القصيدة التي يصف فيها ايام طفولته
 فحفظتها واستهواني شعرة ، ورايته شاعراً يتحدث بأسلوب
 عاطفي رقيق عن القلب وهو اجسه ، وعن نزوات الطفولة
 واحلامها ، وكان وصفه لهياكل بعلبك آية في الروعة ، وما
 همنى وصف الحجارة والتماثيل والهيكل وتلك المعجزات
 الخالدة من البناء التي :

البستها الشمس تفويف در

وعقيق على رداء نضار

بقدر وصفه لارتعاشات القلب - قاب طفلين احب بعضهما

بعضاً وهما في فجر الصبي

ايه اثار بعلبك سلام

بعد طول النوى وبعد المزار

ذكريني طفولتي وأعيدي

رسم عهد عن اعيني متواري

مستطاب الحالين صفواً وشجواً

مستحب في النفع والاضرار

يوم أمشي على الطلول السواجي

لا افترار فيهن الا افتراضي

نزقاً بينهن غراً لعوباً

لاهيأ عن تبصر واعتبار

مستقلاً عظيمها مستخفاً

ما بها من مهابة ووقار

يوم اخلو بهند نلهو وزهو

والهوى بيننا اليف بجاري

نتبارى عدواً كأننا فراشا
روضة ما لنا من استقرار
نلتقي تارة ونشرد اخرى
كل ترب في نجبا متواري
فاذا البعد طال طرفة عين
حسنا الشوق مؤذنا بالبدار
وعداد الاحاظ نصفو ونشقى
بجوار ففرقة فجوار
ليس في الدهر محض سعد ولكن
تلد السعد محنة الاكدار
كلما نلتقي اعتبقنا كأننا
جد سفر (١) عادوا من الاسفار

(١) مسافرون حقيقيون

قُبَلات على عفاف تحاكي

قُبَلات الأنداء والاسحار

واشتباك كضم غصن أخاه

بأياد غرّ من النوار

قلبنا طاهر وليس خليلاً

اطهر الحب في قلوب الصغار

كان ذاك الهوى سلاماً وبردًا

فاغتدى حين شب جذوة نار

حبذا هند ذلك العهد لكن

كل شيء الى الردى والبوار

والقصيدة طويلة ، وكلها على هذا النسق ؟ فمهنتي

وحبيت الى مطران ، وكنت كما قلت ، أوثر حافظاً

عليه ، ولا افاضل بينه وبين شوقي ، فقد كان وصف حافظ للبؤس الاجتماعي ولصيحاته القومية اثرهما في نفسي ، و كنت الى هذا ، مأخوذاً بصياغة حافظ وجمال ديباجته . ولا اريد هنا ان افاضل بين الشعراء الثلاثة الذين يمثلون مدرسة مستقلة ، فقد نهضوا ، بعد البارودي ، بالشعر نهضة حية اعادت اليه بعض روحه وروائه وأتقنته من الاقطة التي كانت تفرضها عصور الانحطاط التي قام ادبها على بهارج اللفظ وركاكة التعبير وسقم المعنى . نعم ، لست هنا في مقام المفاضلة وبيان اثر كل شاعر فحسبي الاماع الى اثرهم في تجديد ديباجة الشعر وجعله صورة لمنازع العصر ، ونقله من الاغراض الضيقة الى الافاق الواسعة . وفي عقيدتي ، ان مطراناً كان اجراً صاحبيه

فوثب بالشعر العربي وثبات اوسع ، وهو الى سيره مع شوقي وحافظ في اغراض المديح والرثاء والاخوانيات ووصفه النزعات القومية وملتويات السياسة فقد خص النزاع النفسية وخفقات القلوب ومظاهر الحس والعاطفة بشعر يفيض بالركة والعذوبة والجمال ، وكثيراً ما نقرأ له قطعة صغيرة في وصف زهرة تفوق بمثلولها ، كما قلت ، قصيدة في مئة او مئتي بيت ، وسر ذلك ان مطراناً لم يجد غضاضة ان يرسم عواطفه المحتلجة بينا صاحباه قد تخرجوا لزمها عن التعبير عن هذه الخوارج . واذا عبرا عنها اعتمادا للف والدوران لكيلا ينهم شعرهما عن خلجات عاطفتها . اضف الى ذلك ان خليل مطران عاش حياة تختلف عن حياة صاحبيه ، فقد اندمج بحياة الحس ومغريات

الشعور اندماجا وعبّ من كوؤوسها حتي الثمالة . وطريقته
 في صوغ الشعر ان يترك نفسه على سجيتها ، وهنا يهبط
 عليه الوحي ليرسم اهتزازات هذه النفس .. وهو الى براعته
 في التصوير اي في رسم الوان النفس يسجل دائماً احساسه
 الذاتي .. وفي حياته ، والملابس التي رافقت نشأته ،
 ونزوحه عن وطنه في سبيل الرزق ، ثم اندماجه بمختلف
 الطبقات وشتى اصناف البشر ، واشتغاله بالحياة الصحفية
 والاقتصادية - كل ذلك قد جعل من هذا الشاعر الذي
 كان رمزاً للاخلاق السامية والنبيل الانساني رجلاً يختلف
 كل الاختلاف عن الكثيرين من الرجال ، والكثيرين من
 الشعراء . ولست هنا بمعرض الحديث عن نباه الانساني
 ولا عن خلقه بل عن ناحية من اذبه وشعره - هذا الشعر

الذي كان له أثره في توجيه النفوس نحو الادب الوجداني
 والعاطفي والذي كان اشبه بالواحات الجميلة التي تركز الى
 ظلالها القلوب المعذبة والنفوس الضائعة الى تقديس الجمال .
 بعد هذه التوطئة الطويلة نخاض الى ان خليل مطران
 كان يعيش حياتين : الحياة العامة التي يحيهاها الشعب
 بمختلف طبقاته والتي عبر فيها عن افراحه واطراحه في
 المآسي الوطنية والمباهج القومية فوصف نضال الشعب
 وثورته ضد الطغاة ، وجهاده في سبيل الحرية والاستقلال
 اي انه لم يترك ظاهرة من ظواهر الحياة الاسجلها في
 شعره الذي يمكن اعتباره مرآة صادقة لتاريخ مصر وتاريخ
 الشرق والشرق العربي بصورة خاصة ..

وحياته الخاصة التي يصف فيها آلامه وهو اجسه ،

ونبضات قلبه في خلواته وسهراته .. وهو مبرز في وصف
الحياتين .. ولكن في وصفه لحياته الخاصة اكثر تبرزاً
وأدق شعوراً وأصفى كلاماً .. ومرد ذلك انه في حياته
العامة يكتب اهواء الجماعات بينما في حياته الخاصة يكتب
اهواء نفسه ، والانسان اقدر على تصوير نفسه منه على
تصوير غيره . وتقف عند هذا الحد من الاستطرادات
لننتقل بالقارئ الى احدى قصائده او الى هذه المقطوعات
التي تؤلف قصيدة كبرى يشرح فيها حبه عندما كان في
فجر شبابه وهي قصيدته « حكاية عاشقين » فراه لا يرسم
صور حبه وغرامه بل حب وغرام الكثيرين من العشاق ..
وبذلك نعطي صورة ضئيلة من حياة مطران في شعره
الذاتي وحياته الوجدية .

- ٣ -

الشاعر الحساس هو هذا الانسان المجنح الذي لا يستطيع ان يعيش طوال حياته دون ان يحقق قلبه للحب -
 - لـحب الطبيعة والحياة ، لـحب النعم والزهر ، لـحب المرأة التي تتجلى فيها كل افانين الجمال .. وما كان لـخليل مطران - وهو انسان حساس - ان يشذ عن هذه القاعدة ولا سيما وهو في فجر الصبا وفي اول تفتحته للحياة .. احب فتاة وهو في السادسة والعشرين من عمره فخلقت منه شاعراً خلد شعره على الدهر ، وقد وصف حبه لهذه المخلوقة الجميلة في مقطوعات وقصائد شعرية تؤلف « حكاية عاشقين » وهي حكاية تضطرم فيها العواطف اضطراما ، تبدأ حوادث القصة باللقاء الاولي وبصور لنا كيف تمت

المعرفة ، فقد كانت الحبيبة في حديقة الازبكية تخطر بين
وردها وزنايقها وتأمل جمال الطبيعة ومفاتها الخلابه واذا
نحلة تلسعها . ماذا ؟ لقد ظننت الوجنة ورداً فجاءت
لترشف الشهد .. رأى الشاعر هذا المنظر فأوحى اليه
قصة بدأت ببتين من الشعر وانتهت بأكثر من مئة بيت .
فقد وصف شكوى الحسناء من ألم اللسعة ثم رأى فيها ما
يبرد غليله . نعم ، انه انتقام آلهي التي تود قتله ... فقد
كان الحب في اول ضرامه ، وكان الشاعر يحس وقدة هذا
الضرام ، ومع حبه لها ، وشغفه بها فقد رأى في هذه اللسعة
ما يبرد غليله ويظفيء حبه ! ..

ثم يذهب في رواية قصة هذا الحب وصفاً فيه لون
من عبث الطفولة ، ولا بأس ان نمر بهذا العبث ، فقد

جرت للشاعر ، في اللقاء الاولى والثانية ، مقامرة هزلية
 وكثر الدين على العاشق ، فطولب به فعصى وأبى الا ان
 يرسله في صك . وقد كان الصك قصيدة شعرية ختمها
 بقوله :

ادفعها في الموعد	مع الربا المعد
ل... (١) الحسناء	فريدة النساء
بحسبها الفتان	والعقل والبيان (٢)
وذا اعترافي ولها	صكّ عليّ دلها
اكتبه وأملي	قبل حلول الاجل

(١) لم يذكر اسم العاشقة وان كانت من خلتص اصدقائه .
 (٢) ويدل وصفه هنا على انها من المثقفات الاديبات ، وبديهي ان
 تترجح روحه بروح اديبة تفهمه .

ان يعلنوا افلاسي بين جميع الناس
لكن اذا الجيب خلا يوماً فان القلب .. لا

ثم يذهب به الخيال فيتمنى لو ان منطاداً طار بهما الى
اوج الملاء وأتيح لهما ان يطلقا فرحهما في عناق طوال
الدهر - في هذا الفضاء الفسيح ليذوقا الهوى سكرراً
عجيباً - نمرته من الطلاقة والضياء ، اي ليذوقا طعم الحب
الابدي .. ولم يفكر بهذه الرحلة في عرض الفضاء الا
لينجو من العيون الحاسدة والقلوب الحاقدة التي كانت
تأخذ عليهما خلواتهما واجتماعتهما الحلوة البريئة ..

وحكاية هذه القصة طويلة .. فما من حالة من حالات
الوجد المبرح الا ولها مقطوعة او قصيدة، وقد كتب في
هذه المقطوعات الشعرية شغفه بها ، وظمأه لرشفات الحب

الندية ، وشكواه ، وعتابه ، ولم ينس ان يرى في حبه
 هذا كما قلت ، النزوات التي تراها عند الاطفال في عبثهم
 فيعاتبها ان غضبت ، ويعترف ان في تصرفاته لونا من
 عبث الاطفال فيسترضيها ، ثم يصف في قطعة نائلة ملامح
 جمالها في (ليلة سعد) بسم له فيها الحظ ، وارتوى بعد
 ظمأ طويل و عاف قوامها وعينها وهداياها ثم هذه العبوسة
 التي تحلو لديه ، ثم رصف حبه وكيف كان يكتمه لا
 نخوف بل حرصاً على سمعتها من اللوام .

و ما انا من روعه الحمام	كتمت هواك دهرًا لا نخوف
ولو ادى بمهجتي الغرام	ولكني حرصت عليك منهم
فان عوتبت راغني الملام	وكم عاتبت فيه النفس نومًا
وان هو مسه خير اصنام	كجرح قد الطمّنه بامسي

الى ن قال :

فما انسى تلاقينا هجيعاً بلا وعد كما شاء الهيام
 كأننا شملتان اذا اعتقنا على ظمأ فلم يرو الاوام
 وما ان تنظفي نار بنار فيشفينا التعانق والزام (١)
 رعاه الله ليلاً فيه ذقنا نعيم السهد والرقباء ناموا
 فكان من الظلام لنا ضياء وكان من الضياء لنا ظلام

بعد ان قضى ليلة مع الحبيبة عدّها من اسعد ايام حياته
 انتقل بها الى جنة الحب « فمثل تلك الرواية الازلية - رواية
 آدم وحواء . فأتمر بأمرها ، واقتسما الثمرة الشهية ... فما
 تعليل آدم هذا العصر لاقتراف هذه الخطيئة ؟ هنا تبدو
 لباقة الشاعر في تصوير خلجات النفس ونبضات القلب

(١) الملازمة

واقرار مبدأ الحب بدلا من الاعتراف بالخطيئة فيقول:

والذنب شفع وهو منشطر	ذنب آتيناها مشاطرة
وقدامتعاضت بالهوى البشر	لا بأس من فقد النعيم به
لا الماء والاطيار والزهر	حواء فنتك النعيم لنا
أحبته والصبوة العمر	حواء ما اغويت آدم بل
صفو وما اكداره كدر	من لم يحب فما الصفاء له
مرت على مرآتها الصور	ويرى الحياة ولا يعيش كما

وهكذا ، فقد خالف العرف والاتجاه ، ورأى في
 الغواية حياة لا موتاً ، اي ان آدم الجديد سن في الحب سنة
 تخالف الذين اخذوا على آدم القديم غوايته لحواء !.

* * *

ومرّ مطران في جنة الحب سنوات .. كان الى اعماله

المرهفة ينعم بصفو الحياة .. كان يخلو الى حبيته في ساعات الفراغ فيسمعها اشغاره ويرتل لها ما ينظمه لها في خلوات تطول وتقصر ، وكان حريصاً على سمعة حبيته من الالسنه الطويلة التي تقذف المحبين بالحق وبالباطل . ولكن عبثاً كان يتقي هذه الهجمات .. فكان يقع بينهما ، من جراء هذا اللفظ ، ما يقع بين المحبين من سوء تفاهم ، فيكتب لها معتذراً ، ويتوسل اليها ان تكون منصفه ، وان لا تجني عليه لقالة سوء . ويعود فيذكر ايامه معها ، وما قاساه من لدعات الحب . وان اخلاله بوعده لم يكن الا لمرض وان ظنونها لم تكن في محلها ، وقد بات طوال الليل يعنف نفسه لارتياها في هواه .

أبيت طوال الليل والداء مسهدي
أعنف نفسي وهي لم تقترف جرماً
على ذكر عهد كان لي منك موعد
بتجديده لو لم تحمل دونه الحمى
ثم يذكر هيامه بها وحبها بعد أن يصف اعراض
الحمى التي انتابته فيقول:

أحبك حتى لا سرور ولا منى
ولا شمس ، الا أن أراك ولا نجما
أحبك حتى ينكر الحب رسله
«جميلاً» و«قيساً» والاولى استشهدوا قدما
ولو لم تكن في الموت سلوى أخافها
لاحببت حتى الموت فيك ولو ذمما

وهذا نهاية الحب عند مطران الذي أعطى كل ما
احتواه قلبه لهذه المخلوقة النبيلة التي ملكت عليه كل
مشاعره .

واستمر بعد ان برىء من الحمى ، ينشدها قصائده من
الغزل الرقيق الذي يصور خلجات قلبه ويذكر أيامها
الحلوة ، وسهراتها الماتعة ، وهذه الزهات اللطيفة في
الجزيرة ، وعرض النيل ، واحاديثها عن الحب والوجد ،
عن ضياء القمر ، عن زرقة الماء ، عن الروضة الغناء ، عن
قلبيها الطروبين ، عن هذه النزوات التي تعكر صفو
علاقتها واجتماعهما ، عن غضبه وألمه . . . يا لثورة الشاعر
اذا نرا جرح حبه ، فالدنيا في نظره مظلمة ، والروض قد
عراه الذبول ، والزهر يفتر له كذباً ونفاقاً ، والطيير ينوح

لايلامه . . وما زال يشرح آلامه للحبيبة حتى رقت له
وبكت ، وهي شاعرة الروح والاحساس ، فكشفتها بما
يعتلج في ضميرها فبكى لبكائها وصور هذا البكاء أروع
تصوير .

ان قصة حب خليل مطران طويلة ، كتبها بدموع
قلبه وتفتحت شاعريته بشتي ألوانها على قصة هذا الحب .
نعم ، انها حكاية طويلة . حب وهيام ، وجد وغرام ، ولقاء
وفراق ، وصدّ وعتاب ، وقد ظلّا سنوات يشربان كؤوس
الحب . ثم وقع الفراق . . تركته الحبيبة وسافرت واجدة
على محبها لو شايات سمعتها عنه . فثار قلبه من جديد ، وبماذا
يروّح عن نفسه بغير الشعر . كتب اليها قصيدة من وقدة
القلب المحترق . مسكين شاعرنا الشاب ، لقد استبد به

اليأس ، وغلبه الحزن ، ولم يعد يصدق ان ذلك العهد الجميل
من حبه قد انقضى وتوارت ظلاله الوارفة . وبدأ يرسم
صوراً جديدة من ذكريات اللقاء ، فذكر سويغات انه
بقربها .

فيا وردتي ماذا أحلك جمره ويا وجنتي ماذا أحلك نارا
جزى الله اخوانا وشوا بي عندها فكانوا السعدي حين تم عثارا
وأخذ يستعيض عن هجرها وبعدها بوردة كان يسقيها
بدمعه ، وهو يضمنها ويشمها ويقبلها كل يوم .. وكان يستمع
الى نجواها - نجوى وردته في الليل والنهار .

يا القلوب الشعراء ما ارقها ؟ . فالنظرة الحافظة قد تثيرهم
وقد تلعب دوراً كبيراً في حياتهم .. وقد عاش مع وردته
فترة من الزمن يناجيها ، اي يناجي حبيبته ، بذكر ملاحظها :

ياوردة يرتاح جانها وان دميت يداه بشو كهالممدود
عودي فنقتطف الازاهر غضة غراء حلاها الندى بعقود
عودي نظر كفراشتين تنقلا ثلمين يرقصنا الصبا بنشيد
متعانقين اذا اتبهننا رابنا ظلان معتنقان غير بعيد
عودي فنجنب المجامع رغبة عن كاذب من أنسها مفقود
ونطالب الخلوات بالانس الذي فيه شفاء الخاطر المكثود
وفي الفترة التي وقع بينهما الجفاء كتب عدة قصائد
في العتاب ، ففي قصيدة « الشاعر والطائر » حلق في
الاجواء وتمنى ان يكون شدة الطائر الطليق ليغني
انشودة الحب الازلي ، فلم تعد الالفاظ لتعبر عن مكنونات
قلبه ، فهو في ألم ممض . . مسكين خليل مطران ، فقد
اعطى في شبابه كل حياته للحب بالرغم من مواضع الحياة

التي كانت تفرض عليه أقسى اعبائها .

احببت حسناء ذات دلّ تهوى المنى في جمالها
لو أبصر الراهب المصلي طلعتها عاذ والهـا

* * *

رأت غرامي فماهدتني على الهوى الطاهر المباح
ثم جففتني وباعدتني بغير أم ولا جناح

* * *

فاعتمت بعدها حياتي من ذلك الطالع السعيد
وصرت أمشي الى مماتي في ظلمة اليأس الطريد
لقد داخله اليأس ، وأخذ في قصيدته هذه ، يخاطب
الطائر المغرّد ويرجوه ان يعيره جناحيه ليطيّر فراراً من
الناس ، فلم يعدي يحتمل رؤية الناس ، فهو يريد ان يرى

الكون من عل ، اي ان يرى الدنيا بجبالها واراضها وعماراتها
 ظللاً باهتة . . انه يريد الفرار الى عزلة نائية ليتمتع بالنور
 والطبيعة .

شفاني الله من جنوبي والبعد عن خلقه شفاء
 ولكن كيف الشفاء من جنونه وحببته ايمست بقربه ؟
 لو كان حي هنا بقربي لكان حقاً هنا الهناء
 لكنه غائب وقلبي باكٍ من الهجر والجفاء
 وبما هو في هذه الثورة النفسية ، يقاسي ألم الفراق ،
 اذ بنباء يتلقاه فيشيره ويبكيه ، فقد جاءته الاخبار تقول ان
 حببته مريضة ، وانها مصابة بداء عضال ، وانها في مرتفعات
 جبل لبنان ، وقد هم بالسفر ليكون بقربها ، ولكن صديقاً
 عزيزاً عليه نصحه بالترتيب ، فقد يهيج سفره داءها . .

ولكن كيف يصبر على البعد ، ان حبيبته قريبة من الموت
وهو يتمتع بالحياة .. لا . ابداً ..

لئن كان موت في مقبّل تغرها

سأرشفه منه شهياً مطيباً

خلقنا لكي نحبي ونقضي في الهوى

ألفن يأبى الحب ان نتشعباً

فان ساءنا دهر أئيم بفرقة

فزعنا الى قبر رحيم فقرباً

وخشي عليه اصدقائه من صدمة النبا فجاؤه نبأ جديد

يدحض نبأ مرضها ، فبشره وبشفاء الحبيبة ، ووصف فرحته

بقصيدة جديدة غمز فيها دجل الاطباء وشعوذتهم وكيف

يوهمون المريض بما ليس فيه :

الحمد لله انها سامت وافلتت من مخالب الخطر
 لا كسل في اتقاد عينها ولا اصفرار في وجهها النضر
 ولا اغبرار على ابتسامتها من طول ليل العناء والسهر
 عاد اليها تمام روتها و ليس فيه للداء من اثر
 وجه كتفاحة الشام اذا ما رويت من مدامع المطر
 وهبسم تبسم الحياة به عن قانيء اللون ساطع الدرر
 هذا هو الفصل الاول من « حكاية عاشقين » لخليل
 اما الفصل الثاني ، فهو فصل حزين مكتئب تفيض اللوعة
 وتنهمر الدمعة من كل كلمة من كلماته ، فقد اشتد المرض
 على الحبيبة فأودى بشبابها زعمت الى محبتها فبكاها بعدة
 قصائد حزينة ، وقد تمى لو نزلت الرزية به ولا يصدم بهذا
 الخبر . . وفي بكتائه وشجوه اخذ يذكر ايامه معها ،

وقصيدته « مثال في مرآة » من اجمل واشجى قصائد هذه
 القصة ، فيها روعة الوصف ودقة الحس ، فتشعر وانت تتلو
 مقاطعها كأنك تشهد مأساة برع الشاعر في تصوير نبراتها
 الحزينة .

لقد اسودت الدنيا في عين خليل مطران بعد موت
 حبيبته وظل مدة من الزمن يتوهم انه مصاب بالداء الذي
 ماتت به حبيبته .

حبيبة قاي ان تكوني سبقتني

فجزني لم يسبق وما للهوى مثلي

فقدتك بالداء الذي هو قاتلي

فان ساءنا بالفصل اسعد بالوصل

ومرت به الايام ولم ينسها بل كل كان يبكيها كلما

عرض ذكرها له ، وكيف لا يبكي حباً دام سنوات ست
 ففي ليلة من الليالي سمع قينة تغني وتضرب العود ، فهاجه
 ذكرى حبيبته ، وأحس يطلب الى القينة ان تنشده لحن
 الالم لعل فؤاده يستعيد من هذا اللحن الحزن جناحين ،
 يطير بهما الى لقاء محبوبته . نعم ، ظل يذكرها في كل
 مناسبة تعرض له من مناسبات الحياة ، في نشوته وفي ألمه ،
 وكما ذكرها حين سمع غناء القينة وهي تضرب العود ،
 ذكرها حين اشتد به المرض فكتب قصيدة من الشعر
 الباكي عنوانها « الاثر الباقي » . تقرأ فيها نفساً معذبة
 وقلباً كاد يسلو الحياة ويعافها .

يا قلب مات بك الغرام فعلى بقيتك السلام
 ما تنفع الكأس التي بقيت وقد فني المدام

ومضى شباب النفس ان شبابها هو الهيام
وهنا يصف حالته :

الله في صدر وهي وتقوست منه العظام
خاو كجوف الغار تملأه المخاوف والظلام
الآن سراجا حائلا فيه ينير بلا اتسام
روح تضي على ضريح في صميم القلب قام

عاش سنوات في صميم الذكريات الحزينة ، لا يرى
أثراً من آثارها الا بكى وسجل بكاءه في قصيدة ، فقد
وجد يوماً وهو يقلب ملابسه منديلاً ابلاه مرور اعوام
عليه ، ولم يسلم منه الا الموضع الذي طرز عليه حرفان
مشتبكان من اسم حبيبته فكتب قصيدة يصف اثر ذلك
في نفسه ، ثم كان لكل فصل من فصول السنة اثره في

إثارة الذكرى ، ففي قصيدة « دمعة على فقيدة » يصف
 عودة الربيع بما يحمل من زهر وورد .. ولكن ما الربيع
 عنده ؟ انه يرى فيه كآبة الخريف .. ان زهره شوك وانهره
 دموع .. ليس للربيع اي بهجة في نفسه بعد فقد حبيبته .

من كان مفقود الحبيب فلا شباب ولا ربيع

ثم يختم هذه القصة الحزينة ، وهي قصائد وقطوعات
 من الشعر ، بمقطوعة يصف حبه الذي استحال عبرة وحسرة :

سررت في العمر مرة	و كنت انت المسره
كانت حياتي روضاً	و كنت في الروض نضره
وكان غصنا شبابي	و كنت في الغصن زهره
وكان فكري سماء	وكان حبك فجره
كان حسنك يوحى	الى يراعي سره

وكان لحظك يهدي الى بياني سحره
 وكان تغرك عيلى على سماعي نره
 وكان طيبك يهدي الى ثنائي نشره
 وكنت للروح روحا وكنت للعين قره
 قد « كان » هذا ولكن مضى وأخلف حسره
 فبت لا شيء الا حالين : ذكرى وعبره

وبهذه المقطوعة تنهى « حكاية عاشقين » او قصة قلبه
 الذي علق بحب فتاة رماها القدر بداء السبل فماتت وهي في
 فجر الصبا ، فكان حزنه عليها كبيراً . وظل يذكرها كلما
 انشد شعراً . وهكذا ، نجد في هذه القصة الشعرية ، وفي
 قصته الثانية « الجنين الشهيد » و « تذكارات الصبى »
 وغيرها من القصائد - نجد في شعر خليل مطران صوراً

رائعة من حياته الشعرية ، وقد اردنا من هذا العرض -
 لم نعرض الا قصيدة واحدة تشرح حالة من حالاته النفسية
 في الوجد والحب والالم - اردنا ان نعطي صورة من شعر
 خليل مطران في نزعتة الجديدة وخروجه على الطريقة
 الكلاسيكية التي كانت مذهب الكثيرين في ذلك الوقت
 اي قبل نصف قرن من يومنا هذا .

ان دراسة شعر خليل مطران ، في شتى مراحل حياته
 تحتاج الى دراسات طويلة ومباحث متعددة ، وحسبي هنا
 هذه الامامة السريعة عن طور من اطوار حياته - طور الصبا
 والشباب ، ولانك ان شعره في الفترات التي اعقبت هذا
 الطور ، قد تطور واستوعب الفنى وادق واعمق ما في
 الكون والحياة ، وليس بالكثير على هذا انشاعر الفذ ان

يحتل زعامة الشعر مع شوقي وحافظ ، « واذا كان حافظ قد عرف بسرعة البديهة وحلاوة النفس وصفاء العبارة ، وشوقي ببراعة الغناء وقوة الاسلوب وحسن التصوير ومطران بصحة الفكرة ووحدة القصيدة وصدق النظرة والثقافة الشاملة » فقد استطاع ثلاثتهم ان يشبوا بالشعر العربي هذه الوثبة الجديدة التي انقذته من بهارج اللفظ الى روعة المعنى وان يعبدوا الطريق امام الجيل من شعراء المدرسة الحديثة .

* * *

لقد شعر خليل مطران ، بعد موت شوقي وحافظ ، انه اصبح وحيداً في عالم الشعر . وقد كان يؤلف معها الثالوث المقدس لزعامة الشعر العربي الحديث ، فتسائل

ما بقاؤه بعد ان فارق صديقيه العزيزين :

الصاحبان الاكرمان تولىا

فعلام بعد الصاحبين بقائي ؟

لم يتركا برداهما غير الاسى

لاخيها ما دام في الاحياء

الطيب المحمود من عمري مضى

والمقتدى بالروح من خلصائي

* * *

يا صاحبي غدوت منذ نأيتما اجد الحياة ثقيلة الاعباء

لا ليل عافية هجمت به ، ولا يوم نشطت به من الاعباء

وهذا منتهى الوفاء لروح الصداقة ورسالة الشعر .

وهكذا ، فقد انطوى بموت حافظ وشرقي ومطران ومن

قبلهم اسماعيل صبري والبارودي - انطوى عهد انبعاث الشعر بعد ان ظل قروناً في الاقطعة التي فرضها ادب عصر الانحطاط ، وكان عصرهم ، كما ألمعنا ، فترة الانتقال من الكلاسيكية الى الابداعية - مذهب شعراء الشباب من المدرسة الحديثة - هذا المذهب الذي آمن به خليل مطران ، فكان من أئمه ، وفتح بابه على مصراعيه ، وجميع من ولج به يذكرون لفقيد المذهب الابداعي فضله في ثورته على القديم ، وتجديده رسالة الشعر التي اراد من ورائها ان يكون الشعر العربي مرآة صادقة لتطورات العصر بمختلف نوازعها واهدافه ومراميها .

لمحة عن :

الادب العربي المعاصر

حين نقول الادب المعاصر نريد أدب العصر الذي
نعيش في خضمه ونحيا في ظلاله ونستمتع بروائعـه ونرى
انفسنا في كلماته - في شعره ونثره وفي قصصه وحكاياته ..
و حين نقول الادب العربي المعاصر نريد الادب الذي
ينتجـه ادباء مصر ولبنان وسورية والعراق وادباء المهجر
وسائر الاقطار العربية .

فما هي سمات هذا الادب ؟

مالونه وما اثره في نفوسنا وفي عقولنا وفي عواطفنا ؟

ثم ما هي اتجاهاته ومرامييه ؟

وهل هو صدي ادبنا القديم في عصوره المختلفة ام

صورة لما يجيش به هذا العصر من تيارات واندفاعات ؟

هل هو يصور المجتمع العربي في ماضيه ام يصور

حاضره ؟

هل يصف ما يكابده الانسان العربي من بؤس وشقاء

.. وما تكابده الاوطان العربية من ضنك وبلاء ، ام هو

بعيد عن تصوير هذه المظاهر ؟

وفي فيض من هذه الاستئلة نسأل ايضاً هل يصور

ادبنا هذه الخلجات الانسانية التي تحسها الامم والشعوب

في نضالها الدامي وكفاحها المرير ضد الظغيان والجبوت :
 أم لا يزال أدبا محدود الافق ، لا يعبر هذا التعبير الصادق
 عن تلك الاحاسيس والنزعات - نزعات الفرد كانسان ،
 وفورات الجماعات في حالتها هذوتها واضطرابها .. في دعوتها
 وثوراتها ..

قبل الاجابة على هذه الاسئلة زيد ان نرسل كلمة
 سريعة تحدد معاني الادب ، كما يحددها اكثر من اديب
 عرضوا الى حقيقة الادب على ضوء المفاهيم العالمية .

فالادب لم يعد اليوم صياغة لفظية ولا التماساً لغريب
 المعاني ، وانما هو نقد للحياة ومراجعة للواقع وفهم .
 هو تصوير للمألوف وجمع لعناصره في صور يمكن
 ان تعيدش بفضل صياغتها وصدقها .

هو خلق نماذج بشرية نجد فيها انفسنا (١)
 وهو الى هذا : فن جميل ، غايته تبليغ الناس رسالة ما
 في الحياة والوجود من حق وجميل بواسطة الكلام ، فكل
 ما ينتجه فن الادب الصحيح في اية لغة من اللغات لا غاية
 له غير هذه الغاية (٢) وقد بعث الاديب ليقف على ما
 يستتر تحت ظواهر هذا الوجود من حقيقة ليري هذه
 الحقيقة بنفسه ثم ايرينا ايها ، ورسالته هي الكشف للناس
 عن الحقيقة بلهجة العصر الذي بعث فيه (٣) .

ويربط اديب افرنسي حياة الاديب بحياة امته فقال (٤) :

ان الاديب المشتغل بمسائل تتعلق بمتقبل امة ، يجب

١ - دوهامل في مقدمة كتابه دفع عن الادب

٢ - الدكتور هيكل ثورة الادب ص ٢٦

٣ - الفياسوف الالمانى نيتشه

٤ - جان جوريس

ان تطابق حياته فكره ، وتمثل اخلاقه مبادئه ، بل يجب ان يهب للبدا المستخلص حياته . . والا خان الفكرة وخان الامة . . وجرده الشعب من اقدس العبادات البشرية ، وأقدرها على رقيه . . الا وهي عبادة الانسان الذي عاش وفكر ثم استشهد ومات في سبيل مثل أعلى .

وفي هذا الصدد يقول استيفان زفايج :

« ان الادب ليس هو الحياة فقط ، بل لا يعدو ان يكون وسيلة للسمو بها وادراك مأساتها بصورة اكثر وضوحاً واكثر تفهماً .

وقد حدد پول سارتر زعيم الوجوديين مفهوم الادب

بقوله :

« ان الاديب هو الذي يكون صورة حية للمجتمع

الذي ينتسب اليه: في اعمات هذا المجتمع يجب ان يغمس ريشته ، ومن واقع هذا المجتمع يجب ان يستمد تجاربه ، وحول هذا الادب يجب ان يدور بخطوط اتجاهاته الفكرية ، وعلى الاديب ان لا يكون بمعزل عن مشكلات عصره ، ليستطيع ان ينفذ الى اغوارها بشعوره ليصدق الاحساس بها والتعبير عنها حين يتحدث الى الجماهير ، وينفذ الى اغوارها بفكره وعلمه وثقافته ليشارك في البحث عما تحتاج اليه من حلول . .

وتروقي كلمة مكسيم غوركي في هذا الصدد فهو يصف رسالة الادب وصفاً آية في الدقة حين يقول :
 « ليس فن الادب محصوراً في تعقب اغلاط البشر
 ومساويهم بقدر ما هو متوفر على السمو بالانسان فوق

مظاهر حياته وتخليصه من قيود واقعيته وحقارة مألوفها واعتياديتها ، بل من شأن الادب وعمله وواجبه ان يصور الانسان امام نفسه لا في صورة العبد الرق للظروف والاحوال ، ولكن في صورة السيد القاهر من فوقها المتغلب عليها ، المحدث ما يشاء فيها ، الطليق الارادة فيما يتبعه فيها ، ومنها كان الادب مجدداً ثائراً ، ينتقل بالناس من حال الى حال ، ويخرج بهم من شأن الى شأن »

وبعد ، فلن نسترسل في سرد هذه النماذج التي جاءت على لسان ادباء يذهبون مذاهب مختلفة في فهم رسالة الادب . فالادب ، في مفهومه الصحيح : وفي عرف الكثيرين « ليس ان يفتن الاديب في تصوير العواطف البشرية فقط ، وفي عرض فواجع الحب ومآسي الهوى ،

وفي رسم الاخلاق والعادات الشائعة في بيئة رسماً تحقيقياً
يسجلها في العمل الادبي ويكفل لها الخلود .. ليس غرض
الادب في عقيدتهم تجميل الحياة .. واضفاء حلة من الجمال
الشعري عليها ، ورفع مستوى العواطف والغرائز وصقلها
وتهذيبها والتلطيف من حداثها فقط - بل يرون الى كل
ذلك ، ان يكون الادب اداة حياة لرفع مستوى الحياة
والمهوض بالانسان والشعوب الى ارقى مراتب الكمال
الانساني .»

بعد هذا الاستطراد ، ندخل الى صميم الموضوع ،
وموضوع حديثي : لمحات سريعة عن الادب العربي
المعاصر ..

قبل ان نتحدث عن الادب العربي ككل لا يتجزأ ..
 لابد من تقسيمه هذا التقسيم الجغرافي .. فنحن مضطرون
 ان نقول الادب المصري ، والادب اللبناني ، والادب
 السوري ، والادب العراقي ، والادب الحجازي ، كما كان
 اسلافنا يقولون الادب الاموي ، والادب العباسي ،
 والادب الاندلسي ..

ولنبداً بالادب المصري

وللادب المصري ، تاريخ طويل ، فقد تعاونت
 تيارات مختلفة على خلقه .. منها ماله صلة بحياة المجتمع
 وبالثقافة الاوربية .. نعم تعاونت تيارات مختلفة على
 تكوينه وخلقها اظهرها النيبا الديني ثم التيارات القومية
 والانيارات الاجتماعية .. وحين أقول التيار لديني أريد ما

كان ذات صلة بالازهر . . فجامعة الازهر ، هي البيئة الرحبة التي انبثق من اروقها هذا الاشعاع الديني الذي غمر العالم الاسلامي كله . واذ كانت لغة القرآن ، ولا تزال ، هي مادته الاولى في التدريس ، وكانت اللغة هي الاداة المعبرة عن العلوم والفنون والآداب . . فكان من البديهي ان يضطرب الادب العربي ، في بداية هذا القرن وقبله ، بفترة غير طويلة من الزمن ، باللون الديني ، وأن يكون لهذا اللون أثره الموجه في نفوس الكثيرين من الابداء المصريين . . وهكذا ، فقد ظلّ الادب العربي في مصر ، منذ منتصف القرن التاسع عشر الى بداية القرن العشرين ، يمت بصلة وثقى الى الماضي ، لا ينظر الى الامام الا بتحفظ ، واذ نظر فتلك النظرة الحذرة التي تحسب لما يقذفه الغرب

من شروء الف حساب!.. وهو، في صميمه يقوم على التوجيه، والتمسك بما تركه السلف لاعتقاد اكثرهم ان لنا بما تركه السلف الكثير مما يغنيننا عن ادب الغرب وفنه، وحتى، في رأي بعضهم عن علومه!

وقد كان بعضهم يريد ان يقيم اسواراً تصد كافة التيارات التي تأيننا من الغرب.. لكن تلك المحاولات قد ذهبت سدى.. ذلك لان الآراء والمذاهب التي جاءت من الغرب قد أخذت تجرف كل شيء.. ولم يستطع ان يقف «الازهر» دون اندفاعها، وكان لا بد له من ان يأخذ بروح التطور - اي ان يأخذ الكثير من علوم الغرب في مناهج تدريسه، وفتح اروقته لاساتذة اعلام قد تذوقوا علم الغرب وأدبه، وبديهي ان يتقل هؤلاء الاساتذة

اساليب الغرب ومناهجه في التدريس ، وأن يطبعوا افهام طلابه بطابعهم ، وان يفسحوا لهم المجال ايسروا في نفس الطرق التي سار عليها اعلام المفكرين المسلمين كالكندي والغزالي وابن حزم والشهرستاني ومن اليهم ممن كانت الجدة والاجتهاد طريقتهم في البحث . . ففتحوا للطلاب الازهريين نوافذ كانت مغلقة - هي نفس النوافذ التي كان يطل منها الاسلاف على دنيا العقول المتحررة . . اي أخذ الازهر ، في السنرات الاخيرة ، يحقق رسالة جمال الدين ومحمد عبده والمرآغي وعبه الرازق ، وينتقل من النطاق الضيق الى الافق الواسع . . وبتنا نأمل ، والازهر معقل من معافل اللغة في الشرق الاسلامي ، ان يصبح تاجه جزءاً متمماً للانتاج الفكري الذي يؤلف وحدة كاملة

من الادب المصري المعاصر في شتى فروعه .. فمن صميم
 البيئات الازهرية خرج اعلام لعبوا ادواراً خطيرة في
 تاريخ مصر السياسي والعقلي لعلّ أبرزهم الامام محمد عبده
 وسعد زغلول وطه حسين .. ونحن ان نستطيع ان ننكر
 اثر الازهر في دعم اللغة العربية كأداة حية من ادوات
 الادب وتخريج غير واحد ممن عنوا بجمال لاسلوب وصفاء
 العبارة كالمنفلوطي والزيات .

فالظاهرة التي يجب ان يسجلها الادب اليوم ، هي
 ان الازهر أخذ يقترب بثوره وشعره ومباحثه من الادب
 الحلي الذي يتبلور بأدب الغرب ..

فاذا انتقلنا بالادب المصري ، الي صنفه الثانية ، نراه
 يعيش في جواء بعيدة عن الجو الديني .. واذا عرض لهذه

الجواء فبأسلوب يختلف كل الاختلاف عن اساليبهم
وطريقتهم ونهجهم ..

تحرر الادب المصري المعاصر او كاد ، من الكثير
من القيود القديمة . . وأخذ يسير ، جنباً الى جنب ، مع
آداب الامم الحية ، يقتبس منها ويحتذيها وينقل عنها . .
يبدو هذا واضحاً في شعر الشعراء وأدب الكتاب ونقد
النقاد وفي كتب المؤلّنين وهذه الدراسات والمباحث التي
يكتبها الجامعيون .. انهم ، او اكثرهم ، يسرون هذا السير
الواضح الذي يدينهم من كتاب الغرب .

وهو ذو ألوان مختلفة .. فالادب القصصي مثلاً قد
اصطبغ باللون المحلي : وصف القرية المصرية والبيت
المصري - البيت القديم بتقاليد وهو البيت الجديد بمستحدثاته

.. وصف رجل الشارع بؤسه وشقائه .. وابن القصور
بترفه وبذخه وخيالاته .. وكان للنواحي السيكلوجية
اثرها في كتابة غير واحد ممن عالجوا هذا الفن فلم يكتفوا
بوصف المظاهر بل نفذوا الى الاعماق ، واستخلصوا العظمة
البالغة التي توجه القارئ توجيهات صادقة نحو الخير
والحق .. أي لم يستهدفوا مذهب « الفن للفن » بل اتخذوا
من الفن ذريعة لوصف المجتمع .. ووصف الانسان ..
والنفس الانسانية في شتى مظاهرها .. وحاولوا ان ينجوا
نهج أفكار قصصي الروس والافرنسيين فجاروهم الى حد
ما ، وكانوا في ناحية الاقصوية ابرع منهم في ميداني
القصة والرواية .

وما نقوله عن القصة ، نقوله عن الشعر . فقد تناول

الشعر المصري اغراضاً مختلفة . . فن عهد البارودي . . او
 - وهذا الاصح - من بداية عهد شوقي وحافظ الى يومنا
 هذا اقتحم الشعر الكثير من الاغراض . بعضها قومي
 وبعضها اجتماعي . . وفي كلتا حالتيه شعر موجه . . ولم
 يهمل ، الى هذا ، النواحي الذاتية ، ووصف طبيعة مصر ،
 وأرض مصر ، وماضي مصر وما الى ذلك من اغراض الشعر .
 لاند انتقلت المذاهب الشعرية في الغرب الى افهام
 شعراء مصر ، ولا سيما الشباب منهم ، فقبوا منها بعض
 الاتجاهات وتأرجح اكثرهم بين هذه الاتجاهات وبين جو
 القصيدة العربية التي لاتزال ذات سيطرة عليهم . . ومن
 هذا المزيج اخذ الشاعر المصري يتجه اتجاهات متباينة
 في الكثير من منازعه !

وإذا تر كنا القصة والشعر فعلينا ان نتقل الى أفق
أوسع . . الى الإنتاج الفكري بشتى الوانه . . فقد اضطلع
الأدب المصري في هذه الناحية بجهد كبير . . واتسع
أفق التأليف في جميع النواحي . . في الأدب الخالص ، في
التاريخ ، في الفن ، في الدراسات الاجتماعية . . في المباحث
النفسية فأضفى على هذه التيارات لونا من أزهى الألوان .
ان زعماء الحركة الفكرية الذين اصطبغت ثقافتهم
بثقافة الغرب لم يمنعهم ان يكونوا واثقي الاتصال بالأدب
العربي القديم فالستطاعوا ان يكونوا من هذا المزيج لونا
من الأدب الهادي ، الرصين الذي تلتقي في رحابه شتى
الثقافات التي تجارى نزعة التطور - لقد آمنوا ان الأدب
لا يمكن ان يزدهر ما لم يندمج بغيره من آداب مختلف

الامم على ان لا يفقد ذاتيته وخصائصه .. واستطاع
 - اريد ادب مصر المعاصر - ان يقتبس الكثير من ادب
 الغرب ، وان يلبس بعض أرديته دون ان يقطع صلته
 بخصائص الادب العربي القديم وان يكون له من كل
 ذلك لون خاص يجعله صورة مما يحسه القاريء العربي في
 الكثير من خبايا الحياة . والادب المصري في القرن
 العشرين يمثّل اصدق تمثيل في اتجاّطه حسين وهيكّل
 والعقاد واحمد امين وتوفيق الحكيم وتيمور والمازني
 من اعلام الكتاب والادباء ، ومما نظمه شوقي وحافظ
 ومطران ومحرّم وعلي محمود طه وابراهيم اجي وغيرهم
 من الشعراء .

ولا أوسع اكثر من هذا ، فكلماتي لمحات عابرة ،

وفي حدود هذه اللمحات انتقل الى الادب اللبناني والى
سائر أدب الاجزاء العربية .

الادب اللبناني

وتاريخ الادب اللبناني مليء بالمفاخر .. فقد كان بدء
الثورة والانطلاق في حياتنا العقلية ، هذه حقيقة لا ريب
فيها .. نزع ادباء لبنان ، حتى منتصف القرن التاسع عشر
نزعات تحريرية . وكانوا حريصين كل الحرص ، في العهد
العثماني المظلم ، على تراث اللغة العربية ، وقد انتشروا في
مشتى اقطار الدنيا يحملون في صدورهم هذا الحب الوامق
للغة القرآن .. تجلى ذلك في ادب اليازجي والشرتوني والشدياق
والبستاني وغيرهم من أئمة البيان .

ولم يعرف الادب اللبناني العزلة والانكماش قط . انه

أدب يأخذ ويعطي . استمد مادته من طبيعة لبنان
 المخضوضرة الزاهرة الفينانة ، ومن الأدب الافرنسي ..
 ومن جو البحر الابيض المتوسط - ومن زرقة مائه وزرقة
 سمائه وشتي ثقافته .. ولم ينأ قط عن الادب العربي
 القديم - من الادب الجاهلي الى الادب الاندلسي .. فكان
 للآداب العربية من هذا المزيج المتفاعل أدب لبناني حي
 له قوته وله طلاوته ، له سحره وجزالته ، له عبيره وله
 موسيقاه .. ولست اريد ان أعمد الى التساريخ فأذكر
 الادباء اللبنانيين الذين عملوا في تأريخ النهضة الفكرية في
 الشرق ، والعوامل التي مهدت لازدهار هذه النهضة التي
 صنعها ادباء لبنان بحيويتهم العجيبة ، وحبهم الخالص لرسالة
 الادب ، وانسياقهم مع زعات التطور ، وإيمانهم بحرية

الفكر ، ومعالجتهم مختلف الموضوعات الفكرية واللغوية .
واضطلاعهم بعبء الصحافة العربية التي حملوا مشعلها
الوضاء في ارض مصر ، وفي كل مصر ، بقوة واندفاع
ومغامرة وصبر واخلاص - ان معالجة هذه النواحي تحتاج
الي بحث طويل وقد تقتضي الباحث ان يكتب رسالة او
يؤلف كتابا فحسبي من هذا الاماع ان اشير الى ان
الادب اللبناني الذي بدأ في القرى اللبنانية الشائخة الذرى
وتحت اشجار والصنوبر والارز - قصائد ومقالات ومعاجم
ونقل ملاحم وموسوعة قد خطا اليوم خطوات سريعة
واخذ يشارك في شتى فنون المعرفة والمذاهب الادبية
مشاركة لها اثرها في تاريخ العقيدة العربية الحديثة . وهو
يلعب دوراً خطيراً في تطورها الفكري بما تقوم به

المؤسسات ودور النشر من اخراج عشرات الكتب ومئاتها وكلها تنسم بالطابع المصري الموجه الذي ينير للامة العربية الطريق في سيرها الطويل .. ولترجمة في لبنان شأنها المميز حتى كادت تسبق التأليف .. وتقوم هذه الحركة اليوم على سواعد شباب يقظ آمن برسالة الادب فأخذ على عاتقه ان يتحرر من القيود، وأن يفك السلاسل التي تعيق التفكير الحر، وأن ينطلق في الآفاق ليقدم الى القاري العربي كل ما يغذي شعوره ويصقل نفسه وينمّي تفكيره .. وللبنان في ترجمة النخار سابقة طيبة حسبنا ان نذكر الياذة هو ميروس لسليمان البستاني، ونهضة الترجمة اليوم وان كانت تتناول هذه الالوان من الادب الواقعي الخفيف الذي يتصل بأدب ما بعد الحرب العالمية الثانية فنرجو ان

يكون لترجمة روائع الادب العالمي نصيبها من عناية المترجم اللبناني لما لهذه الروائع من أثر في ادبنا وتفكيرنا .
 والخلاصة ان الادب اللبناني هو رمز لحيوية الادب العربي المعاصر وهو يحمل مشعلاً وضاءاً في جو حر وتحت سماء رحبة وأرض خصبة بالموحيات . .

ادب المهجر

وحين نتحدث عن الادب اللبناني فلا بدّ من كلمة عن أدب المهجر ، ونحن نعلم انه حين بدأت هجرة السوريين واللبنانيين الى الامريكيتين الشمالية والجنوبية كان بين المهاجرين ادياء وشعراء يحملون في طوايا صدورهم جذوات من نفحات الادب - جذوات ظلت حبيسة لا تشع الا في الظلمات . . فلما انتقلوا الى الآفاق الرحبة ، والى

الاجواء الحرة انطلقت تلك الاراء الجبسة ترسم الخلدات
 وتصور النزعات في وطن جديد لا يخضع للقيود ولا
 لمناسبات التزمّت . . وما هي فترة حتى تميّز أدب اولئك
 المهاجرين بلون خاص وطابع خاص . . واصبح صورة من
 صرر الآداب الحية . . فيه جزلة وقوة - جزالة المبني
 وقوة المعنى . . وقد مهد لهم ذلك الجو الحر ان يرسموا
 تألاتهم بروح نائرة وأخيلة مجنحة . . وصفوا لوعة المهجر
 ووجد الشوق . . وهذه الاحاسيس الانسانية التي يحسها
 الانسان المفكر الحر . . وصفوا الكون والحياة بما في
 اسرارها من قوى زاخرة . . ووصفوا طبيعة الانسان الحائر
 الذي حاول التفلسف فكان له من لا أدريته بعض ما يطمئن
 زعات حيرته . . وصفوا هذا ووصفوا الجمال في روائع

الطبيعة فكانت نزعاتهم التجديدية بدء الانطلاق في فهم
رسالة الادب على حقيقتها، ولم تقف الاقطة اللغوية التي تقيد
روح الاديب الهائمة دون تصوير أحاسيسهم بصدق
واخلاص .. وهكذا فقد تميَّز ادبهم بظاهرتين واضحتين:
الانطلاق والشمول. واريدهما التحرر من قيود اللفظ
والتجاوب مع كل ما في الحياة الانسانية من خلجات .
وبهذه الاتجاهات دخل الادب المهجري ميدان
الادب العربي الحديث بقوة وعنف .. وما كاد يستوي
ويحتل مكائته في قلوب القراء .. وما كاد الكثيرون
يتمثلونه ويحتذونه حتى وقف حيث بدأ .. أريد ان اقول
انه وقف عند هذه الروائع التي كتبها جبران ولريحاني
ونعيمة والدرويش والحداد وعريضة والقروي وابو ماضي

وفرحات ومعلوف وغيرهم ممن ضمتهم « الرابطة القلمية » و « العصابة الأندلسية » وهي في ما تزال في الرمق الاخير ، وكل ما يرجوه ان لا تنطوي تلك الصفحة المشرفة من هذا الادب النضير الحمي الذي ترك في تاريخنا الادبي مقاماً ملحوظاً يداي ما للادب الاندلسي في ادبنا القديم من مقام ملحوظ .

الادب العراقي

الادب العراقي ، أدب زاخر بحياة الوجد والشوق والحنين ، بحياة الحب والبكاء والالين . . وبحياة القوة واثارة الهمم والتغني بالابجاد والمفاخر . . ظهرت ملامحه واضحة منذ دبت اليقظة في البلاد العربية كلها . . فكان الشعراء والكتاب لسان هذه النهضة . . وربما كان الرصافي

والزهاوي والكاظمي والشبيبي واندادهم من الشعراء
والكتّاب أول من نفخ في بوق النهضة الفكرية في العراق
.. ولا أحد يشكر ما تركه الرضافي، وما تركه الزهاوي
من أثر في حياة الفكر العربي وفي تاريخ النهضة الأدبية
في العراق . لقد كانا ركسل الثورة الفكرية .. وفي شعرهم
هذه الصيحات القومية والنزعات الاجتماعية والتأملات
الفلسفية وقد أنتجت أرض العراق الخصبه عشرات الأدباء
والشعراء وكلهم يمثلون لونا خاصا من الأدب العراقي الذي
يتميز بصفاء العبارة وأصدق العاطفة وحرارة الإيمان بالاجداد
العربية والاندماج بالأدب العباسي العريق . كان هذا طابع
الأدب العراقي الى قبيل الحرب العالمية الكبرى ، وظل في
هجرة إيجير سيره الوئيد تارة ، والمندفع تارة اخرى الى ان

أخذت العراق تسير قُدماً في طريق الحياة وتجاربي زميلاتها
 الاقصار الشقيقة، وما مرّت هذه الفترة القصيرة او الطويلة
 لا أدري، بين الحربين العالميتين حتى رأينا الحياة الفكرية
 تزدهر في العراق، ورأينا لوناً جديداً من الادب العراقي
 يتميز هو الآخر بالقوة والانطلاق. من اتجاهات
 قصصية ذات طابع محلي في إطار من الروح الانسانية التي
 تصور المجتمع العراقي، الى شعر يجمع بين الروح القومية
 العارملة والناملات الذاتية. الى كتب مؤلفة ومترجمة في
 اغراض ثقافية مختلفة، واثمن غلب عليه، او على الأكثر
 صورته، الطابع القديم فان اتجاهه يتركز نحو الدنو من
 الآداب العالمية. يبدو ذلك في ادب الشباب الذين
 ينزعون نزعت حرة منطلقة.

ادب الجزيرة

والحديث عن ادب العراق يجرنا الى الحديث عن ادب الجزيرة . . ادب الحجاز ونجد والخليج العربي ، وهو ادب مغمور يمثل لون الجزيرة العربية . جوه الخاص ولونه انخاص وعبيره انخاص . . والصحف الادبية تنشر من حين الى آخر بعض القصائد والدراسات . . واذا هو ادب فيه رونق الضحى وسكون الليل ولا لآء النجوم ، فيه قسوة الصحراء ورياحها العاصفة . . وهو ادب لم تتناوله الدراسات الادبية بعد لان يد الناشر لم تمتد الى هذا الانتاج الذي لا يزال اكثره في طي الكتمان ، ويؤسفني كل الاسف ان اغفل الحديث عنه لندرة المصادر وهو يستحق جولة في تلك الربوع والاتصال بالادباء والشعراء وتعرف نرعاتهم

لكتابة بحث مستقل .

وما أقوله عن أدب الجزيرة أقوله عن الادب الذي
نتجته فلسطين الشهيدة - الادب الذي أنتجته بالامس ،
وتنتجه اليوم - انه ادب الدم والثأر ، وهو ادب قوي ضخيم ،
ولا مجال لبحث صورته وخصائصه في هذا الحديث ، وكل
ما ارجوه - والكثير من مصادره تنقضي ، ان أخصه
بدراسة مستقلة .

بعد هذه الجولة السريعة أقول كلمة موجزة عن

الادب السوري ..

الادب السوري

ربما صحّ لغيري أن يتحدث عن الادب السوري ،
لأن مواد تاريخه تنقضي ، ولا لاني اعيش في جوائه

بل لان مهمة المؤرخ الذي يستشرف مثل هذه الاحداث
تقتضيه ان يكون في منأى عن قلب المعركة . . ومع ذلك
فلا ضير عليّ ان اشير الى بعض مظاهر الحياة الادبية في
سورية . .

فحياتنا الادبية ترجع الى خمسين سنة الى الوراء . .
شأنها في ذلك شأن الحياة الادبية في سائر الاقطار العربية
. . فقد طهر أدياء ومفكرون سبقوا عصرهم وأخذوا على
عائقهم ان يوقظوا الشعب من غفوته الطويلة . . وكان
الادب وسيلتهم لهذا مشاعر الوجدانيين عن طريق الصحف
والقصائد والخطب . . وظلوا في طريقهم الى بداية الحرب
العالمية الاولى التي نبّهت الافهام وايقظت المشاعر . وبدأ
الشعراء والكتاب يسرون مع شعراء مصر وكتّابها . .

وكانت الصيحات تتجاوب في كل مكان وتلتقي عند نقطة واحدة . . وهي التفاخر بالماضي واحياء التراث القديم والاخذ بأسباب النهضة الحديثة .

على هذه الامور وعلى دراسات محدودة في الادب والتاريخ دار ادب الادباء وشعر الشعراء .

ولكن الحياة الادبية لم تقف عند هذا النطاق المحدود بل تطورت مع تطور حياتنا الفكرية والاجتماعية والسياسية . . اي ان تطورنا الذي لامس حياتنا في جميع مظاهرها قد انعكست اضواؤه على اذواق الشعراء ووجدان الكتاب فكانت نهضة فكرية انتجت ادباً قوياً يتصل ببعض الاتصال بالآداب العالمية . . يأخذ منها ليعطي الاريء العربي ألواناً طريفة . . واذا طائفة من الشعراء يرجعون

الى ذاتهم ، والى طبيعة بلادهم .. الى نضال الشعب وكفاحه .. الى ما يحسه الانسان .. واذا الادباء والمفكرون يشاركون مشاركة قوية في بناء الحياة الانسانية على دعائم وطيدة بما ينشرونه من دراسات وما يلقونه من محاضرات وما يؤلفونه من كتب .. وما يترجمونه من روائع أدب الغرب .. وقد حرص المجمع العالمي العربي .. وحرصت دور النشر ومؤسسات الفكر والصحافة الادبية والسياسية - حرصوا جميعهم ان يكون حاضرنا موصول الاماد بماضيها الذهبي وأن يخلقوا من هذه الصلة في تاريخ العقلية العربية مستقبلاً زاهراً يعيد ما كان للعرب في تاريخهم هذا الدور الخطير الذي لعبوه في تاريخ الفكر الانساني .

ان الادب السوري الحديث يستمد معينه من منابع

ثلاثة :

- ١ - من الادب العربي القديم
- ٢ - من أدب الامم الحية
- ٣ - من الذات السورية . . . ومن طبيعة الارض
ومن كفاح الشعب ونضاله في سبيل السيادة والحرية .
وإذا كان « الكيف » اكثر قيمة في ميزان التقدير
من « الكم » فإن ما أصدرته المطابع السورية من كتب
ودراسات على ضالة عددها يعادل في قيمته وفي اثره ما صدر
في غير سوريا من الاقطار المعنية حديثاً بشئون النشر . .
أقول هذا لا عن طريق الزهو بل لتأريخ الحقيقة .

* * *

وبعد فإن هذه الجداول الثرة التي تفرعت من نهر

الحياة الادبية في علمنا العربي نراها تلتقي عندهذا المصب الكبير
 - عند نهر الادب الفيض - أدبنا العربي المعاصر ..
 فما ميزاته .. وما خصائصه .. وما اثره في حياتنا
 العقلية .

أظني ألمعت ، الى خصائص أدبنا والى مظاهره في
 كلامي عن أدب الاقطار العربية ، فلا أعمد الى التكرار ،
 فهو في روحه أدب يصور ما عيننا و تراثنا كما يصور واقعنا
 ومجتمعنا ونضالنا وكفاحنا تصويراً لا ينأى عن الحقيقة .
 وانا لنعلم ان الحياة الادبية لا تة أمة من الامم هي مما
 يتكون من قصائد الشعراء الذين يكتبون أمجاد قومهم
 بالملاحم ويصون نفوسهم وهو راجس لقصا بائد وصور
 مجتمعهم بالمرحيات . ومن مقالات الادباء الذين لا

يتركون ناحية من نواحي الحياة الا عرضوا لها بالوصف والتحليل . . . ومن مباحث النقاد الذين يعرضون للانتاج الفكري فيغير بلونه ويزونه يهدوا القراء الى ، واطن القوة والضعف ، والصحيح من الزيف ، والجمال من القبح .
ومن قصص الروائيين الذين يعفون الى قلب المجتمع فيعرضون شتى شئونه بأسلوب في أخذ . . . من هذه التيارات ومن كتب المؤلفين ومن يعنون بدراسة التاريخ والاجتماع وطبائع البشر . . . وما يبدعه الفنانون على اختلاف هواياتهم ونزعاتهم من رسم ونحت وتمثيل ورقص وموسيقى - من هذا كله يتألف الانتاج الادبي لأمة من الامم .

وفي ادبنا المعاصر اكثر هذه الالوان . . . ولا يستطيع احد ان ينكر مكانة « الكتاب العربي » في نهضتنا

المعاصرة . . انه اليوم في وضع حسن . . وقد أتيح لبعض الباحثين ان يزيلوا التراب عن الكثير من تراثنا القديم ، وأخذ الشباب الجامعيون تحت اشراف اساتذتهم يضطلعون بنفس المهمة التي اضطلع بها المستشرقون فاستطاعوا ان ينشروا الكثير من الذخائر العربية القديمة . . وظهرت عشرات ومئات الكتب في شتى فنون المعرفة ؛ في الادب والتاريخ والاجتماع والفن والعلوم والحقوق والاقتصاد وكلها كتب قيمة اشتركت في تأليفها عقول متميزة اعتمدت على أصفى المذاهب . . وهي في مجموعها « تبرز ما في ثقافتنا في من اسباب القوة وعلامات التميّز . . ومع انها ثقافة ذات طابع محلي ، فهي ذات صفة انسانية ، تجمع بين القديم والجديد ، في مرونة لا يفسدها التماسخ ولا

يعصف بها التجديد ، وتزواج في انتاجها بين روح الشرق
وروح الغرب في تكامل مثمر واتساق جميل .

قد يقول قائل إن الانتاج الادبي في مجموعه كان في
الفترة التي مرت بين الحربين العالميتين اكثر قيمة مما هو
الآن . . يتسهم بطابع الاتزان ، وكان للنأليف مقامه ،
وللدراسات مكانتها ، حتى المقالة لم تكن ترسل الى المطبعة
قبل ان يستوفي كاتبها كل عناصر القوة فيها سواء من
حيث المبنى او المعنى . . او الفكرة التي يبسطها . . وهو
قول فيه كل الحقيقة وان اغضب هذا القول بعض ادبائنا
الشباب . . ولا يستطيع ان ينكر احد ان الادب العربي
قد ركدر كوداً ضرورياً في الفترة التي اعقبت الحرب
العالمية الثانية . . ولكنه ركود التوثب . . رقيب اندفع

الادباء الشباب ، منذ بضع سنوات ، يحملون تلك الجذوة المقدسة التي حملها ولا يزال يحملها اعلام المدرسة الحديثة الذين خلقوا هذه النهضة الادبية التي يتمتع بثمارها الجيل المعاصر .. ولا اريد ان أشير الى المعركة التي نشبت اخيراً وما تزال بين ادباء الشباب وادباء الشيوخ . انها في اعتقادي تختلف كل الاختلاف عن تلك المعركة التي نشبت بالامس بين المجددين والقدماء .. فأدباء الشباب يلتقون مع ادباء الشيوخ عند هدف واحد ونهج واحد وزعات حرة واحدة . بينما الخلاف بين المجددين والقدماء بالامس كان على امور كثيرة .. بين فئة تريد ان تكون معصومة العيون ، مشدودة الى القديم ، لا تفكر لا بتفكير القدماء ، وفئة قد آمنت برسالة الحياة وبما تفرضه الحياة فاطلقت

تبحث الماضي والحاضر بروح جديدة وتتطلع الى المستقبل
 بفهم جديد ووعي يقظ... وكما قلت لا يستطيع انسان
 مثقف ان ينكر على ادباء الشيوخ نزعاتهم الحرة وأدبهم
 الذي يرسم أدق صور حياتنا ومجتمعنا... انهم قادة الحركة
 الذين مهدوا لهذا الجيل ان يؤمن شبابه برسالة الادب
 الحي... وهذا ما لا ينكره المنصفون من ادباء الشباب
 الذين اثاروها لا شيء الا لكيلا ينقطع معين انتاجهم ،
 وقد ظفروا بمناورتهم اللبقة ورأينا غير واحد ممن استهدفوا
 لجملة الشباب يندفعون في خوض المعركة ويربح الادب
 من هذه الخسوم. مقالات ودراسات ترمز الى بداية
 حركة جديدة في أدبنا المعاصر .

وبعد فقف عند هذا الحد من هذا العرض السريع

لاأخذ على حياتنا الأدبية خلوها من ظاهرتين قويتين :

١ - النقد النزيه الذي يوجه رسالة الادب في طريقها القويم ، وتعلمون ان حياتنا الادبية تكاد تخلو من النقد وان كنت استثنى غير واحد من كبار الادباء عاجوا هذا الموضوع بتجرد في طليعتهم الدكتور طه حسين الذي بدأ حركة النقد ثم تركها ثم عاد اليها ثم تركها وهو الان يداعبها قلمه احياناً برفق لا تخلو من عطف واىثار .. والاستاذ مارون عبود الذي يضطلع وحده في لبنان بهذه المهمة حتى كادت صراحته تفقده الكثير من الاصدقاء .

٢ - حرية الاديب حرية مطلقة ليجد امامه الآفاق

الرحبة للتعبير عن آرائه وخلقاته بدون خوف او الزام .

ولا اسهب في بيان اثر هاتين الظاهرتين في حياتنا
العقلية وتطور ادبنا المعاصر فحسبي الاماع والسلام .



تصويبات

الصفحة	السطر	الصواب	الصفحة	السطر	الصواب
١١	٧	هذه الاخادم	١٦٦	١٠	وماهي الاساعات
١٥	٥٥	بما يوائم	١٧٣	٢	القرن العشرين
٢٩	١٢	الشفيق	١٧٦	١١	والمعاصرين
٣٩	٣	ممتي	١٨١	١٠	وهاهوذا
٤٠	٨	ولئن	١٨٢	٣	=
٦١	٧	كثيرون	١٨٣	٣	ها نحن اولاء
٧٠	١	استقي منه	١٨٥	٣	وأي العلاء
٨٩	٥	وتسحي	١٨٩	٧	العميقة
٩٨	٦	تصام	١٨٩	٩	يطمئن
١٠٠	٦	الألهي	٢٠٨	١٢	مطراناً
١٠٧	١٢	السنين	٢٢٢	١٠	الالى
١١٤	٣	ويكتسح	٢٢٨	٩	بنبأ
١٢٥	١	وهأنذا	٢٣٢	١	ستأ
١٣٣	٢	الخواطر في اليقظة	٢٤٧	٩	تدخل صميم
١٥٤	٦	ظمئت	٢٦٣	٣	وماهي الافترة
١٥٥	٦	صداؤها	٢٧٦	٩	ثقافتنا

٢٧٤ ١١ اضطرب تنضيد السطر ١١ وسوابه :

« الملاحم ويصورون هو اجس نفوسهم بالانصائد »

الفهرس

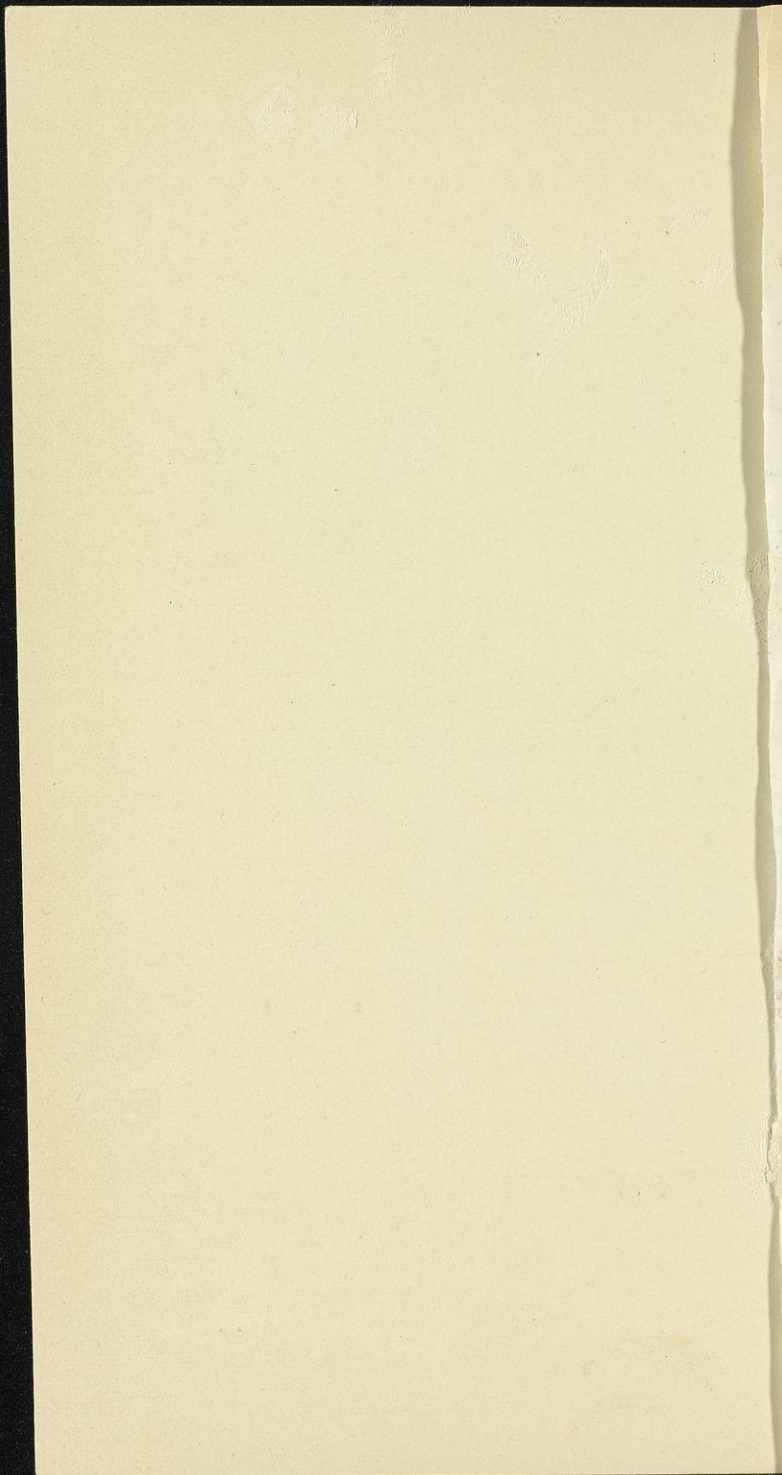
الاهواء

- | | |
|---|-----|
| رسالة الادب بين مصطرع الاهواء والاعاصير | ١ |
| النزعات القومية في ادبنا المعاصر | ١٨ |
| رسالة الماري والعبوة دانتي | ٤٦ |
| مصير اللغة العربية في المهجر الامريكي | ٧٢ |
| قلب الشاعر | ٨٦ |
| الاختل الصغير | ٩٧ |
| الشعر والاحلام | ١١٧ |
| لمحة سريمة عن سير الحركة الادبية في سورية | ١٣٥ |
| خلال الحربين العالميتين ١٩١٨ - ١٩٣٩ | |
| اثر الكتاب الاحرار في يقظة العالم العربي | ١٦٥ |



مع أبي العلاء في سجنه	١٧٩
خليل مطران	١٩٨
لمحة عن الادب العربي المعاصر	٢٤٠
الادب المصري	٢٤٨
الادب اللبناني	٢٥٨
ادب المهجر	٢٦٢
الادب العراقي	٢٦٤
ادب الجزيرة	٢٦٨
الادب السوري	٢٦٩
تصويبات	٢٨٢
الفهرس	٢٨٣





للمؤلف :

نظرات في النقد والتاريخ والادب

شهر في اوربا

سيف الدولة وعصر الحمدانيين

الفكر العربي بين ماضيه وحاضره

الراجلون

ابو العلاء : دفاع ابن العديم عنه

من اضواء الماضي - مباحث تاريخية - « سلسلة اقرأ » -

انواء واطواء - مجموعة قصصية -

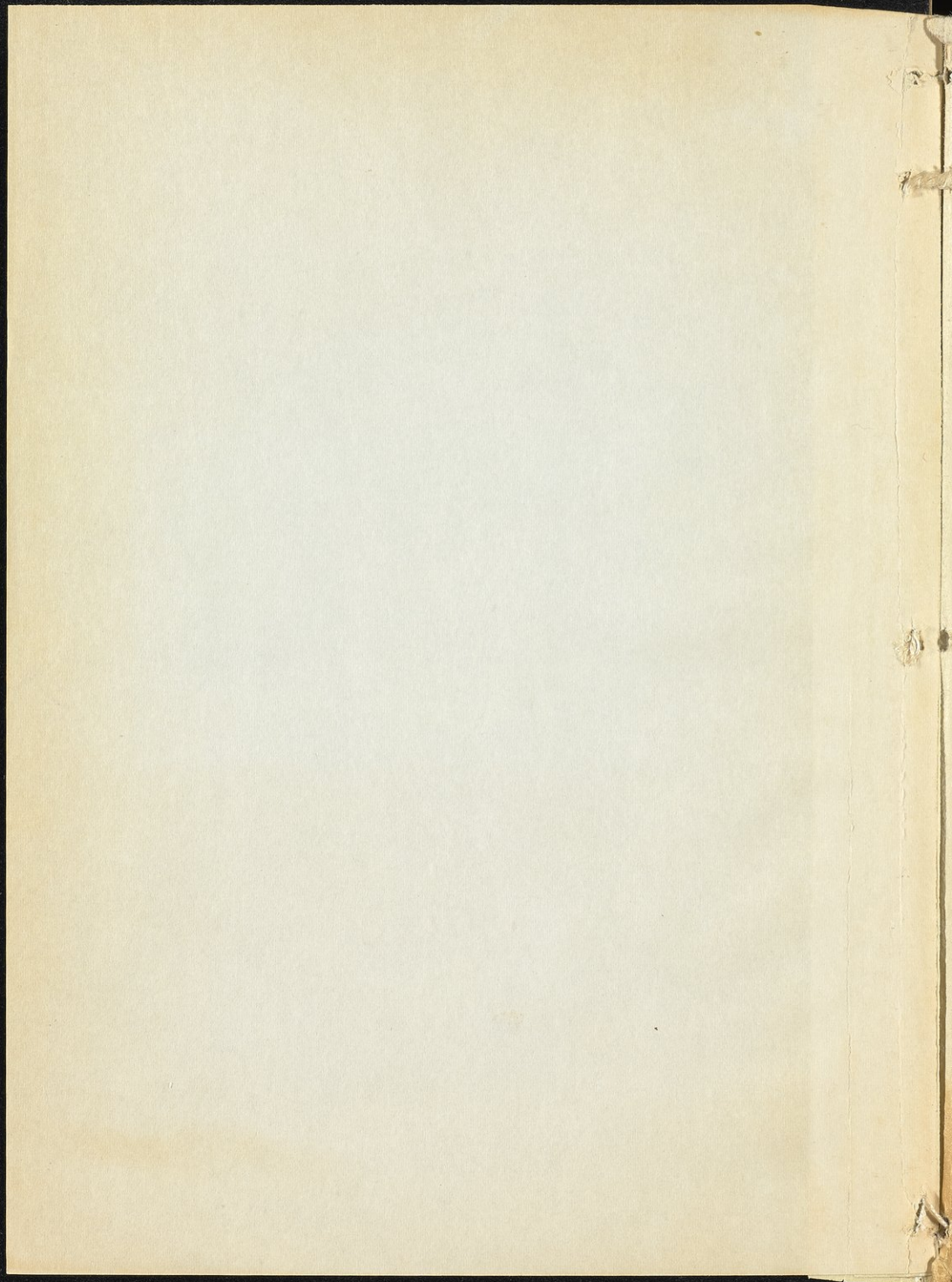
المرأة : هذا اللغز الابدئي

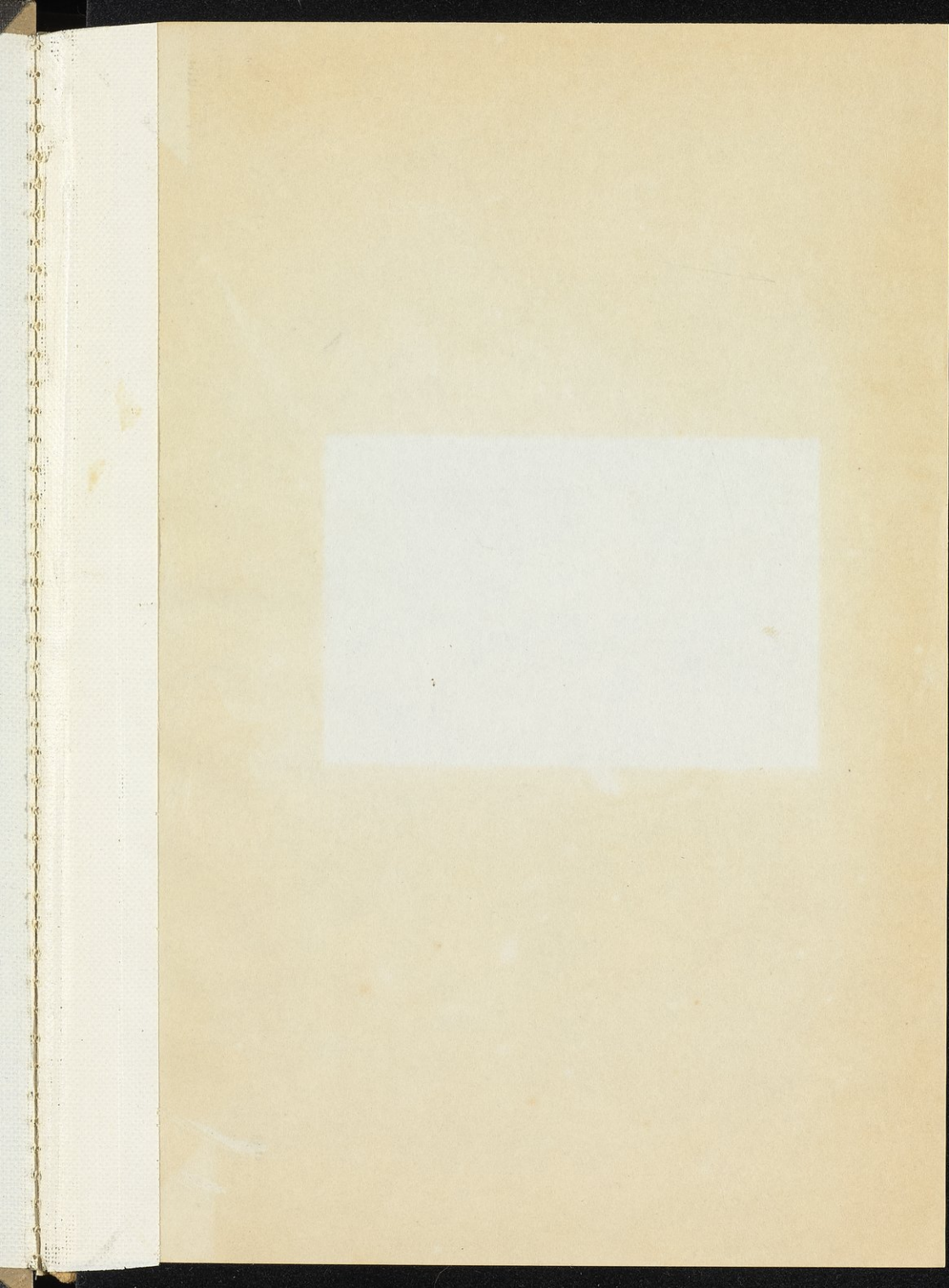
مع طه حسين - « سلسلة اقرأ »

بنت يزيد - قصة معربة -

الحكيم شهاب الدين السهروردي « سلسلة نوابع الفكر العربي »

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف





LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library



32101 073584599